سلسلة كتب ثقافية
تصدرها وزارة الثقافة
المملكة الأردنية الهاشمية





دراسات | 2015

د. رنا أحمد عبدالحليم

جَمَالِيّاتُ المُفارَقَةِ فِي القَصَصِ القُرآنِي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جماليات المفارقة
في
القصص القرآني

جماليات المفارقة في القصص القرآني

الدكتورة

رنا أحمد عبد الحليم

إصدارات:

سلسلة كتاب الشهر

❖ جماليات المفارقة في القصص القرآني

❖ رنا أحمد عبد الحليم

❖ الناشر: وزارة الثقافة

شارع صبحي القطب

المتفرع من شارع وصفي التل

ص.ب ٦١٤٠ – عمان – الأردن

تلفون: ٥٦٩٦٢١٨/٥٦٩٩٠٥٤

فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

Email: Info@Culture.gov.jo

❖ الطباعة: مطبعة حلاوة النموذجية - تلفون ٠٢/٧٢٧٥٥٣٥

❖ رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٤/١٢/٥٩٥٧)

❖الرقم المعياري الدولي (ردمك) ٤- ١٤٤- ٩٤- ٩٩٥٧- ٩٧٨

الإهداء

أهدي هذا الكتاب

إلى من تتوق نفسه لسماع القرآن

وإلى من أحب العربية لغة البيان.

وإلى والدي ووالدتي شكراً وحباً وحناناً.

وإلى الدكتور الفاضل عبد القادر الرياعي.

وإلى الإخوة والأصدقاء.

تقديم

أ.د. عبد القادر الربّاعي

يسعدني أن أقدم لكتاب *(جماليات المفارقة في القَصص القرآني)* وهو الكتاب القيم الذي تتنسم مؤلفته فيه كلمات الله مقتربة بها من كتاب الله تعالى: القرآن الكريم الذي عجزت البشرية عن أن تأتي بسورة من مثله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أقول تتنسم كلمات الله من كتاب الله، وفي ذهني جماعة من الباحثين الذين يجرون مقارنات أو موازنات بين لغة القرأن الكريم ولغة بعض الفصحاء العرب شعراء كانوا أم ناثرين، مثلما فعل الباقلاني في مقارنته بين لغة القرآن الكريم ولغة امرئ القيس في كتابه (إعجاز القرآن) ليثبت أن لغة القرآن أفصح وأكثر بياناً، وربما تبعه آخرون. أما كان له أن يفعلَ فعلَ عبد القاهر الجرجاني في إنجازه كتابه الفذ الجليل: (دلائل الإعجاز)؟! فالقرآن منزه عن أن تقارن به لغة بشر، لأن لغة الله هي لغة الإعجاز وحاشا أن تدنو منها لغة أخرى مهما علا بيانها!.

وانطلقت هذه الدراسة بداية من تعريف المفارقة التي هي تركيب يجمع

المتناقضات، بل المتنافرات في ربقة: مثال ذلك المفارقة في قصة مدرب السباحة. إنها لا تجري حسبما هو متوقع. فالمتوقع هو في إمكانية أن يغرق تلميذ السباحة، وغير المتوقع - وها هنا المفارقة- هو أن يغرق المدرب وأن ينقذه تلميذه.

لقد أفادت المؤلفة من أقوال بعض الفلاسفة والأدباء حول المفارقة حتى استقرت عندها: قيمة أسلوبية جمالية متضمّنة في فاعلية العمل الأدبي وحيويته؛ تتقاطع داخل النفس بين ما يتوقع وما يحدث واقعاً مضاداً. إنها لعبة بلاغية تُبرز ظاهراً وتُخفي نقيضاً. لكنها كما قيل:هي جوهر الحياة، وعمق الوجود، ووعي الإنسان.

أما في القصص القرآني فشاهدها الأساس ما جرى في قصة آدم وحواء؛ إذ أضلهما الشيطان فأكلا من المحرم ليبوءا بعقاب الله،كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٣٥-٣٧].

لقد وقعت الدكتورة رنا على مفارقات في القرآن الكريم عجيبة وكثيرة، لكنها لم تستطع احتواءها جميعاً لاتساع رقعتها فيه، ولهذاخصصت دراستها في جانب من هذه المفارقات القرآنية هو القَصَص القرآني - أحسن القصص،

فجالت مع المفارقة فناً اصطلاحياً ممتعاً للسامع والقارئ على حد سواء، ثم انتقلت تتلقف هذه المفارقات في قصص الأنبياء عليهم أفضل الصلوات والتسليم؛ فبدأت بالمفارقة في قصة آدم وحواء وغواية إبليس لهما مثلما ذُكر. والمفارقة في قصة إبراهيم عليه السلام في كون النار برداً وسلاماً عليه، وكذلك قصص موسى وسليمان وصالح ولوط وشعيب ومريم وغيرهم عليهم السلام جميعاً.

لكنها في مجال آخر تلمست المفارقة في جوانب من السرد القرآني مثل الدراما التي جعلتها اسماً على المفارقة؛ إذ أطلقت مصطلح المفارقة الدرامية في أكثر المفارقات القرآنية، ومثل الحوار الذي امتلأ به القصص القرآني كحوار موسى عليه السلام مع فرعون، وحوار سليمان مع ملكة سبأ، وحوار إبراهيم مع أبيه، وحوار نوح مع قومه وهكذا.

أما يوسف عليه السلام فخصته بالفصل الأخير وتوسعت في استـــنباط مفارقات عجيبة من قصته ابتداء من رؤياه وتحذير أبيه من سردها على إخوته الذين كادوا له فألقوه في غياهب الجب بلا ذنب وهم إخوته، ومروراً بامرأة العزيزوغوايتها إياه وهو في بيتها، والسجن بذنب غيره، وانتهاء بتوليه خزائن الأرض ومجريات الأحداث والحوارات بينه وإخوته التي أدت إلى مفارقات غير متوقعة انتهت بحل لغز رؤياه عليه السلام.

الكتاب حلقة جديدة وعميقة من حلقات الدراسات القرآنية الناجحة

منهجياً وعلمياً وجمالياً. لقد حشدت له الدكتورة رنا طاقات إبداعية رفيعة المستوى لا ئقة بمسماه وبموضوعه. وقد توافر للكتاب مجموعة من النتائج المتميزة والمثيرة، كما رصدت لتعزيز آرائها شواهد قرآنية دالة، وانتهجت لتوجهاتها أدلة معللة، غذتها جمهرة من المصادر والمراجع القيمة التي أعانت صاحبة الكتاب على بلوغها الثمرة الناضجة التي خططت لإنجازها ببراعة وإتقان.

لا أملك إلا أن أهنئ الباحثة الجادة الدكتورة رنا عبد الحليم على هذا الجهد الطيب المبارك الذي قدمت فيه مثالاً فذاً للإرادة القوية، والعزيمة الصادقة، والمثابرة الصابرة؛ فكانت مثالاً جديراً بالاحتذاء في أعمال جادة مفيدة لأصحابها ولمجتمعاتهم إفادة هذا العمل المتقن لصاحبته ولقراء العربية والقرآنية معاً.

أ.د.عبد القادر الرباعي

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السموات والأرض وما بينهما وملء ما يشاء بعد، والصلاة والسلام على النبي الأميّ الذي علّم الناس وهداهم من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والرشاد.

لقد كان القرآن الكريم وسيظل محطّ أنظار الدارسين والباحثين من شتى المعارف والعلوم، فهو المعجزة الخالدة الذي لا يخلق بكثرة الدراسات ولا يبلى بكثرة الترداد، بل إن القارئ له في كل مرة يشعر أنه يقرأ هذا الكتاب العظيم لأول مرة.

لقد آثرت أن تكون الدراسة في حقل القرآن الكريم؛ إيمانا مني أن كلام الخالق لا يدانيه أي كلام بشري مهما أوتي من البيان، ولمّا كانت نفسي تتوق إلى فن القصة حاولت أن أجمع بين الأمرين، فجاءت هذه الدراسة بعد تفكير مطول وبحث مستفيض.

وقد بدأت بقراءة متأنية متمهلة في مفهوم المفارقة ووجدت بعض المشقة في الوصول إلى تصور عام لهذه النظرية الغربية وكيفية تطبيقها على النص القرآني، وقد أسعفتني في هذه المرحلة، دراسة مهمة للدكتور محمد العبد تحمل عنوان (المفارقة القرآنية)، فقرأتها مرات عدة، كما أنني عثرت على دراسة

أخرى بعنوان جماليات التلقي في السرد القرآني (للشهرزوري).

وبعد فهمي لنظرية المفارقة وتعرف أنواعها، بدأت بقراءة الكتب التي اختصت بدراسة القصص القرآني، لأتبين مفهومها والفرق بينها وبين القصة الفنية الحديثة، فوجدت أن مفهوم القصص القرآني يختلف تمام الاختلاف عن القصة الحديثة، وقد أفدت من كتب سيد قطب، وعبد الكريم الخطيب وسليمان الدقور.

ولما أصبح في مقدوري تلمس أنواع المفارقة التي تصلح للدراسة، بات من اليسير علي استقراء مادة القرآن الكريم والتوقف عند كل مفارقة ساهمت في بناء الحدث القصصي، وكل حوار قصصي عكس مفارقة وكل مشهد قصصي احتوت عناصره على مفارقة.

وقد اعتمدت في دراستي على النص القرآني الكريم، مغفلة تماماً ما ورد في التفاسير القديمة من الإسرائيليات، ولهذا كانت دراستي للنصوص ذاتية في كثير من الأحيان مستفيدة من دراسات حديثة في تأويل القرآن الكريم، أذكر منها مؤلفات الشعراوي وأحمد نوفل، وصلاح الخالدي، إضافة لدراسات متفرقة اختصت بدراسة القصة القرآنية.

وقد جاءت هذه الدراسة ضمن مقدمة بينت فيها منهجية البحث والدراسات السابقة وما اشتملت عليه الدراسة من فصول، وتمهيد احتوى على بيان مفهوم المفارقة بوجه عام، ومفهومها في النقد الغربي والعربي

الحديث، وتحدثت عن أنواعها المتعددة ووظائفها الكثيرة وحصرت دراستي في نوعين من المفارقة هما: المفارقة اللفظية والدرامية.

أما الفصل الأول فقد حمل عنوان المفارقة في حدث القصص القرآني، فبدأته بالحديث عن مفهوم القصص وأنواعه وخصائصه وأغراضه، ثم انتقلت بعد ذلك إلى بيان المفارقة الدرامية في حدث القصص القرآني.

وجاء الفصل الثاني للكشف عن المفارقة في الحوار القصصي، فبدأ بمفهوم الحوار القرآني ثم الحوار القصصي وموضوعاته وأطرافه، وانتقلت بعدها لتوظيف آلية المفارقة في الحوار القصصي بنوعيه: الداخلي والخارجي.

ولما كان من أهم خصائص القصص القرآني أنه يقوم في عرض أحداثه على التصوير، آثرت أن أخصص الفصل الثالث للحديث عن المفارقة وبناء الصورة، فبدأته بتعريف للصورة بوجه عام، والصورة الأدبية، وانتقلت بعد ذلك للصورة القرآنية فوضحت عناصر بنائها، ومن ثم عرضت لمشاهد قصصية كاشفة عن مواطن المفارقة فيها.

أما الفصل الرابع والأخير فكان دراسة نصية لقصة يوسف عليه السلام، وقد تم اختياري لهذه القصة لأسباب متعددة منها: أنها شكلت قصة مستقلة في سورة واحدة، كما أنها غنية بالمفارقات اللفظية والدرامية، أضف إلى ذلك تنوّع الشخوص والأحداث والأماكن والأزمنة مما شكّل مفارقات متعددة في مشاهد القصة.

أما الخاتمة فقد قدّمت فيها جملة من النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأرجو من الله العلي القدير أن يتقبل عملي هذا قبولاً حسناً، وأن يكون شفيعي في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الفصل الأول

المفارقة الدرامية في أحداث القصص القرآني

مفهوم المفارقة

لعلَّ مصطلح المفارقة من المصطلحات الضبابية التي شابها الكثير من الغموض، فلا نكاد نعثر على تعريفٍ محددٍ لهذا المصطلح الغربي الذي نجد له جذورًا في البلاغة العربية ليس باسمه هذا وإنما بمسميات قد تكون مقاربة له في بعض أنواعه، ولا غرو في ذلك؛ فمفهوم المفارقة واسعٌ فضفاض وله أنماطٌ متعددة غير متشابهة تقترب من الهجاء والسخرية أحياناً، أو مما يُسمّى بالمضحك المُبكي في أحيان أخرى.

إنّ مفهوم المفارقة قديمٌ قدم الإنسان ذاته، فهو يحمل في جوهره بذور التناقض والتضاد، فالإنسان عندما يخرج من رحم أمه يخرج باكيًا ومن حوله يضحكون، وفي المقابل يموت مستسلمًا راضيًا ومن حوله يبكون، وكذلك فالمرء منا يحتفل بمرور عامٍ تلو عام من سني عمره وهو على يقين أن هذه السنوات هي التي تقربه من حتفه.

ونحن نمارس المفارقة ونشعر بجمالها دون وعي منّا، فالإنسان بفطرته يميل إلى تحطيم ما هو مألوف من وسائل التعبير، كأنه بذلك يجد متعةً وجمالاً، ربما لأن الطرق التعبيرية التقليدية لم تعد ذات تأثير كما كانت فيما مضى، فمثلاً تستوقفك عبارات تثير اهتمامك أكثر من غيرها؛ لأنها مكتوبة على علبة

سجائر، من مثل:

" التدخين مسببٌ رئيسي لمرض السرطان" أو " أبعد أطفالك عن المدخنين لحمايتهم من الأمراض الصدرية " فكأن مثل هذه العبارات تحولت إلى أداة إغراء بالرغم من أنها عبارات تحذيرية.

" وإذا تدرجنا في أصل العلاقة بين هذا المصطلح والإنسان، نرى أن وعي الإنسان بالمفارقة بدأ مع قصة الخلق؛ قصة آدم وحواء في الجنة وهبوطهما منها، ولقد مُنعا من أن يأكلا من شجرةٍ ما، بالأحرى من ثمارها، والتحريم معناه كبح لرغبة الإنسان في شيء ما، وإذا كانت الرغبة قد تركزت في أكل ثمرة من ثمار تلك الشجرة، فإن هذا يعني أن الثمرة بدت لهما آنذاك جميلة وحلوة، فلما صدر أمر التحريم كان لا بد أن ينتقل فكر الإنسان الأول إلى أن الثمرة الجميلة اللون قبيحة وكريهة، وهذه هي المفارقة الأولى وهي الخلط بين القبح والجمال.

لا بد أن الشيطان بدا لهما في لحظةٍ من الزمن غير مرادف للشر؛ إذ إنه ساعدهما على التأكد من حلاوة الثمرة، ولكنهما استكشفا بعد ذلك أن الشيطان شرٌ مطلق، إذ إنه كان السبب في خروجهما من الجنة، وكانت هذه هي المفارقة الثانية المفارقة بين الخير والشر في الشيء الواحد." (١)

---

(١) إبراهيم، نبيلة، فن القص في النظرية والتطبيق، مكتبة الغريب، القاهرة – مصر، ص١٩٦.

وعلى هذا يكون الإنسان قد عرف ضروباً من المفارقة لكنه لم يكن على علمٍ تامٍ بمفهومها المعاصر كما قدمته نظريات النقد الحديثة، وربما وظفت كلمات من مثل " يا للمفارقة " بمعنى " يا للصدفة " في مواقف تستدعي الدهشة.

إنّ ولادة مصطلح المفارقة كان في بيئة الفلسفة في بداية عهده، ثم انتقل بعد ذلك إلى حقل الأدب والنقد فهو في جوهره أقرب إلى روح الفلسفة منه إلى الأدب، ولهذا نرى أن أول نوع من أنواع المفارقة هو المفارقة السقراطية التي اتخذ فيها سقراط الفيلسوف نموذجاً للإنسان الذي يتظاهر بالجهل.

" يعد تيك وزولجر وشليجل من أبرز الفلاسفة الذين أسهموا في تطور نظرية المفارقة الرومانسية، إلا أن الفضل الأكبر يعود إلى شليجل وأخيه أوجست في تأسيس المفهوم الرومنسي للمفارقة، فقد دخلا إليها مدخلاً جمالياً من خلال علم الجمال عند الرومنسيين الألمان، ويرجع الفضل إلى شليجل أنه هو الذي أدخل مصطلح المفارقة في المناقشات الأدبية." (١)

يقول شليجل: " إنّ المفارقة شكلٌ من النقيضة، والنقيضة شرط لا بد

(١) صوالحة، أيمن، المفارقة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، حماده للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١١م، ص٢٥، نقلاً عن: حماد، حسن، المفارقة في النص الروائي.

منه للمفارقة، فهي روحها ومصدرها ومبدؤها ".[1]

ويقول أيضاً: " إنّ المفارقة تقوم على إدراك حقيقة أن العالم من جوهره ينطوي على تضاد، وأن ليس غير موقف النقيضين ما يقوم على إدراك كليته المتضاربة." [2]

والمفارقة في رأي صموئيل هاينز: " نظرةٌ في الحياة تجد الخبرة عرضةً لتفسيراتٍ متنوعة ليس فيها واحدة صحيحة دون غيرها، وأن تجاور المتنافرات جزءٌ من بنية الوجود." [3]

يقول الآن رودوي: " إنّ المفارقة ليست مسألة رؤية معنى حقيقي تحت آخر زائف، بل مسألة رؤية مزدوجة على صفحة واحدة"[4].

مما سبق نرى أن شليجل عدَّ التضاد أو ما سماه بالنقيضة الأمر الأساسي لوجود أي مفارقة، أما هاينز فرأى أهمية تعدد القراءات واعتبر تجاور المتنافرات أمراً لا بد منه، فالحياة مبنيةٌ على التنوع والتعدد، وهذا ما وافق رؤية رودوي

---

(١) دي. سي. ميويك، موسوعة المصطلح النقدي (المفارقة وصفاتها)، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد، العراق،١٩٨٧م، ص٣٦.

(٢) يوسف، حسني، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٨.

(٣) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٣٧.

(٤) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٥٦.

الذي يؤمن بازدواجية المعنى للنص الواحد.

يقول غوته: " إن المفارقة هي ذرة الملح التي وحدها تجعل الطعام مقبول المذاق. ويقول كيركيجارد ليس من فلسفة حقيقية ممكنة من دون شك كما يدعي الفلاسفة، كذلك قد يدعي المرء أن ليس من حياة بشرية أصيلة ممكنة من دون مفارقة." (١)

ويرى عبد القادر الرباعي أن " الحياة حشد من التناقضات والتعارضات التي لا يمكن الإمساك بها في إطار موحد من الإدراك، اللهم إلا بعد أن نصل إلى حالة من إدراك أن المفارقة جوهر الحياة." (٢)

(١) المرجع السابق، ص١٦ .

(٢) الرباعي، عبد القادر، صور من المفارقة في شعرعرار، بحوث عربية مُهداة إلى الدكتور محمود السمرة، دار المناهج، ١٩٩٦م، ص٢٩٩.

تطور مصطلح المفارقة في النقد الغربي

لقد أرّخ ميويك في كتابه الذي ترجمه عبد الواحد لؤلؤة (المفارقة وصفاتها) لمصطلح المفارقة من العهد اليوناني إلى القرن التاسع عشر.

"ترد كلمة "ايرونيئيا" أول مرة في جمهورية أفلاطون، تطلق الكلمة على سقراط أحد الذين يهاجمهم، ويبدو أنها تفيد نوعاً من الأسلوب الناعم الهادئ الذي يستخف بالناس، وذو المفارقة (ديموسثينيس) مواطن يتملص من مسؤولياته مدعياً عدم لياقته للقيام بها، وهو عند (ثيوفراستس) امرؤ مراوغ غير ملتزم يخفي عداوته ويتظاهر بالصداقة ولا يبدي أفعاله على حقيقتها ولا يقدم جواباً واضحاً أبداً. لا تظهر كلمة المفارقة في الإنكليزية حتى عام ١٥٠٢م، ولم تدخل في الاستعمال الأدبي العام حتى بداية القرن الثامن عشر."[١]

" ومع بدايات القرن التاسع عشر كانت الكلمة قد اكتسبت عدداً من المعاني الجديدة دون أن تهمل المعاني القديمة. ويرى ميويك أن هذه المعاني الجديدة التي اكتسبتها الكلمة تشكل تحولاً جذرياً في دلالتها، ويشبه هذا التحول إلى حد بعيد ما أحدثته الحركة الرومانسية من تحولٍ جذريٍّ في النظرة

---

(١) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٢٧ .

إلى العالم عما كان سائداً قبلها." [1]

" في إنجلترا كما في بقية أوروبا الحديثة تطور مفهوم المفارقة بشكلٍ بطيء جداً، فقد أهملت أول الأمر المعاني التي عند (كيكيرو) و(كوينتليان) حيث كانت المفارقة طريقةً في معاملة خصم في جدال، أو خدعةً لفظية في جدل بأكمله، ثم صار ينظر إليها صيغة بلاغية في الدرجة الأولى خلال ما يزيد على مئتي سنة، لقد صار تعريف الكلمة: " قول المرء نقيض ما يعنيه " أو " أن تقول شيئاً وتقصد غيره " أو " أن تمدح لكي تذم وتذم لكي تمدح". [2]

"وقد أصبحت المفارقة اليوم صيغةً بلاغيةً: الذم بما يشبه المدح أو المدح بما يشبه الذم." [3]

"وإذا كان يُنظر إلى المفارقة في السابق على أنها لا تمارس إلا موضعياً أو عرضياً، فقد غدا الآن ممكنًا تعميمها والنظر إلى العالم أجمع كأنه مسرح ذو مفارقة والبشر جميعا محض ممثلين" [4].

" وتخلص ماريك فينلي إلى القول إن كل البلاغيين تقريباً يمهدون في الواقع لواحدة أو أكثر من صيغ التعريفات التالية للمفارقة، وإن كان هناك

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨ .

(٤) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٣١.

بعض الانحرافات المتوقعة عن هذه الصيغة:.

١. الباث يقول شيئاً، بينما هو يعني شيئاً آخر.

٢. الباث يقول شيئاً، بينما شيء آخر يفهمه المتلقي.

٣. الباث يقول شيئاً، بينما يقول في الوقت نفسه شيئاً آخر." (١)

"وبقدر هذه المشتركات بينهما تكون سرعة استجابة القارئ للمفارقة وحل رموزها ، فقد تُقدَّم المفارقة لقارئ لا يوثق في قدرته تماماً ، وقد يُترك للقارئ البحث عن المفارقة في ثنايا النص، وقد تتطلب المفارقة من القارئ أن يكون بمهارة الغواص فيجد الدُّرة داخل الصدفة في الأعماق وقد يضيع جهده هباء فتكون من نصيب سواه ممن كانوا أكثر ذكاء وأنمى ذوقاً." (٢)

" والتعريف القديم للمفارقة كما يرى ميويك – قول شيء والإيحاء بقول نقيضه – قد تجاوزته مفهومات أخرى لتصل بهذا إلى قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيراً واحداً، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المتغيرة." (٣)

والمفارقة كما وردت في معجم أكسفورد المُترجم "هي إما أن يعبّر المرء

---

(١) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، دار الشروق، عمان – الأردن، ١٩٩٩م، ص١٧.

(٢) سليمان، خالد، نظرية المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، العدد ٢، ١٩٩١م، ص٧٠-٧١.

(٣) انظر سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص١٦.

عن معناه بلغة توحي بما يناقض هذا المعنى أو يخالفه، ولا سيما أن يتظاهر المرء بتبني وجهة نظر الآخر؛ إذ يستخدم لهجة تدل على المدح ولكن بقصد التهكم والسخرية، وإما هي حدوث حدث أو ظرف مرغوب فيه ولكن في وقت غير مناسب البتة، كما لو كان في حدوثه في ذلك الوقت سخرية من فكرة ملاءمة الأشياء، وإما هي استعمال اللغة بطريقة تحمل معنى باطناً موجهاً لجمهور خاص مميز، ومعنى آخر ظاهراً موجهاً للأشخاص المخاطبين أو المعنيين بالقول".[1]

(١) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٥٧ .

المفارقة في النقد العربي

لقد تمكّنَ النقاد العرب المعاصرون من التقاط هذه الأداة الأسلوبية الغربية وتطبيقها على تراثنا وأدبنا العربي، ويعود الفضل في ذلك لترجمة كتاب ميويك " المفارقة وصفاتها " وسنعرض هنا لأهم آراء النقاد العرب وأقوالهم في مفهوم المفارقة.

ترى نبيلة إبراهيم: " أن المفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين؛ صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالباً ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة ترتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى يرتقيه ليستقر عنده"[1].

ويقول عبد القادر الرباعي: " المفارقة أسلوبٌ مثير؛ لأنه في أخص خصائصه ناتجٌ عن تقاطع داخل النفس بين ما يتوقع وما يحدث واقعاً، وهي حيلة بلاغية يستخدمها الكاتب للتعبير عن معنى يتضاد مع معنى آخر مستقر في الذهن، وهناك مجموعة من التقنيات التي تتحقق المفارقة بها أو من خلالها

---

(١) إبراهيم، نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق، ص١٣٨.

إذ من الممكن أن يوضح الكاتب بأن المعنى المخفي يتناقض تماماً مع المعنى الظاهر، ومن الممكن أيضاً أن يبني جملته على أساس التعارض بين المتوقع والمنجز، أو بين الوضع البارز والحقيقة الكامنة خلفه" (١).

ويرى سامح الرواشدة " أن المفارقة تبدو متناقضة في ظاهرها، غير أنها بعد الفحص والتأمل تبدو ذات حظ لا بأس به من الحقيقة، وهذا التناقض الظاهري يوهم المتلقي أنه يواجه موقفاً غير متسق مما يدعوه إلى إنعام النظر فيه ومحاولة سبر غوره، لينكشف له عالم من المفارقة والغرابة. فالمفارقة إذن تقدم بهذا التناقض الظاهري آلية تعين المبدع على الانفلات من دائرة المباشرة والبساطة والدخول في آفاق الضبابية الجمالية والشفافية البعيدة"(٢).

والحقيقة أن المفارقة أداةٌ أسلوبيةٌ فاعلةٌ في أي نصٍّ أدبي تشترط وجود عناصر أربعة كما استخلصتها نبيلة إبراهيم:

١. وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد؛ المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبّر به، والمستوى الكامن الذي لم يعبّر عنه والذي يلح القارئ على اكتشافه إثر إحساسه بتضارب الكلام.

٢. لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو

---

(١) الرباعي، عبد القادر، صور من المفارقة في شعر عرار، ص٢٩٨.

(٢) الرواشدة، سامح، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلة دراسات، م ٢٢، ع ٦، ص٣٧٨٧-٣٧٨٨.

التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص.

٣. غالبا ما ترتبط المفارقة بالتظاهر بالبراءة، وقد يصل الأمر إلى حد التظاهر بالسذاجة أو الغفلة.

٤. لا بد من وجود ضحية في المفارقة. (١)

ويرى خالد سليمان أنه لا يصعب تبين وجود عناصر مشتركة بين تعريفات المفارقة، وتتمثل هذه العناصر في ثلاثة: (٢)

أولاً: الكلام الذي يتم تنسيقه في منظومة معينة بحيث يؤدي "الدال" في هذه المنظومة مدلولات سياقية نقيضة لمدلوله المعجمي.

ثانياً: الرسالة؛ وهي ما تحمله المفارقة من المعاني أو الدلالات النقيضة للدلالة المعجمية الظاهرة، أو ما تود المفارقة أن تحققه في نفس صاحب البصيرة من رؤية.

ثالثاً: صاحب البصيرة؛ وهو الطرف الذي تحقق رسالة المفارقة نفسها لديه، وينحصر صاحب البصيرة هذا في واحد أو أكثر من الأطراف:

١. الباث.

٢. المتلقي.

---

(١) إبراهيم، نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق، ص٢٠١.

(٢) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص١٨.

٣. الضحية وهو الطرف الذي يقع عليه مضمون المفارقة.

ونستطيع أن نتبين بوضوحٍ أنَّ للمفارقةِ عناصر وهي: صانع المفارقة وغالباً ما يكون كاتب النص أو أحد أبطاله، والنص الذي يكمن فيه التعارض أو التضاد الظاهري وفيه يتم بث الرسالة، وضحية المفارقة إما أن يكون أحد شخصيات العمل الأدبي أو القارئ لهذا النص، " ويختلف دور الضحية عن دوري كل من صانع المفارقة وقارئها بأنه دور قدري لا إرادة للضحية فيه؛ إذ يبدو دور الضحية تابعاً واستجابة لدور صانع المفارقة وهو لا يحقق أفعالاً سابقة، واستجابته للمفارقة ليست بأكثر من استجابة الطيور لشباك الصياد ، وكلما ازدادت غفلة الضحية وجهلها وعدم إدراكها للأمور -على النقيض من صفات صانع المفارقة - ازداد تأثير المفارقة وعمقها ونجاحها." (١)

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عدم وجود المفارقة في أي نصّ أدبي لا يعني البتة ضعفه، فليس كل عملٍ أدبي بحاجةٍ إلى توظيف مثل هذه الأداة.

وقد وضعت نبيلة إبراهيم جملةً من العلامات التي تؤشر على وجود المفارقة في أي نص أدبي:

١. وصول النبرة التي يوصلها صاحب المفارقة إليه من خلال اللغة؛ وهي نبرة لا يصعب استكشافها في بِداية الأمر، وقد تكون بنبرة التعبير عن

(١) سليمان، خالد، نظرية المفارقة، ص٧٢ .

إحساس الإنسان بمأساة الفراغ على المستوى الإنساني والكوني.

٢. يصبح القارئ على يقين من أن بعض العبارات بل العمل كله لا يمكن أن يصير مقبولاً للفهم إلا بعد رفض ما يقال ظاهرياً.

٣. أن يبحث عن بديل لما لا يقبله ولا بد أن يكون هذا البديل متصلاً بإشارات لغوية في النص من ناحية، ومؤتلفاً من وجهة نظر صانع المفارقة من الناحية الفكرية والعقائدية من جهة أخرى.

٤. الوصول في النهاية إلى وحدة من الصياغة الموضوعية المتكاملة. [١]

" أما عندما نتحدث عن لغة المفارقة بالمصطلح الخاص فإننا نعني اللغة التي لا تساعد على اختزال الفكرة ولا تساعد على استمرارية الحدث وتواصله، كما أننا لا نتحدث عن اللغة المشكّلة مجازياً بل نتحدث عن اللغة التي تغذي جوانب التجربة بضروبٍ من المفارقات التي لا تستنفد احتمالاتها، كأن تتلاعب بوجهة النظر أو بأبنية الزمن أو تناور باللعب بين الوعي والغفلة والخيال والواقع." [٢]

وعلى هذا تكون المفارقة بمفهومها العام مبنيةً على التضاد الشكلي الذي يتبينه القارئ للوهلة الأولى، لكن بعد قراءاتٍ متعددة يغدو النص منطقياً لا

---

(١) إبراهيم، نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق، ص٢١٧

(٢) إبراهيم، نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق،، ص٢١٦.

تعارض بين أجزائه، وهذا التناقض الظاهري من شأنه أن يسمح بتعدد التأويلات.

من هنا تكون المفارقة " تعبيراً لغوياً بلاغياً يرتكز أساساً على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو الشكلية، وهي لا تنبع من تأملاتٍ راسخةٍ ومستقرة داخل الذات فتكون بذلك ذات طابعٍ غنائيٍّ أو عاطفي، ولكنها تصدر أساساً عن ذهنٍ متوقد ووعي شديد للذات بما حولها." (١)

إنّ وجود المفارقة في أي نصٍّ أدبيٍّ يحفز القارئ على استنباط المعنى الحقيقي الذي أراده المؤلف، " فالمفارقة في الحقيقة فعل ذهني مرتبط بأساس جوهري وعميق في النفس التي تصوغه "(٢) وبهذا فإن مثل هذه النصوص تحتاج إلى نوع خاص من القرّاء النخبة الذين يستطيعون فَهْمَ ما لم يُكتَبْ.

---

(١) الأمين، محمد، المفارقة الروائية في رواية شرف، مجلة إبداع، العدد ٤، ١٩٩٩م، ص٥١.

(٢) الرواشدة، سامح، المفارقة في شعر أمل دنقل، مجلة دراسات، ص ٣٧٨٩

أنواع المفـارقـة

إنَّ تقسيم المفارقة إلى أنواع أمرٌ طبيعيٌ يتوافق مع الحيز الكتابي الذي يشغله أسلوب المفارقة ويؤثر فيه، أضف إلى ذلك الرسالة التي يود الكاتب إيصالها إلى المتلقي، " فالمفارقة لغة تواصلٍ خفي بين الكاتب والقارئ، فقد تكون جملةً وقد تكون العمل الأدبي كله."(1)

" لما كانت المفارقة ممارسة أدبية تملك تاريخاً طويلاً يمتد إلى عصور الأدب الأولى، فإنها تستعصي على التعريف الواحد الذي يجمع مفاهيم الأدباء والنقاد لها أو يضم كل أنواعها ودرجاتها، ناهيك عن أساليبها وأثرها في العمل الأدبي. ومن هنا فإنه لا غرابة البتة إذا رأينا تعريفاتها تتعدد وتتباين، ولا غرابة أيضاً إذا بقي مفهوم النقاد لها غامضاً متعدداً أو غير مستقر"(2).

وعلى هذا قسم الباحثون المفارقة من ناحية الأسلوب والدرجات والتأثير والموضوع. وهذا التعدد الكبير لأشكال المفارقة يجعل من الصعب أن نضع لها تعريفاً شاملاً يفيها حقها، وليسهل علينا إيجاد تعريف محدد وثابت للمفارقة فلابد أن نضعها في أنماط محددة ليتم دراسة كل منها بشكلٍ مستقل.

---

(1) إبراهيم نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق، ص١٩٨.

(2) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص١٤.

نرى أن ميويك قسم المفارقة بدايةً إلى قسمين كبيرين، وضع تحت كل قسم أنواعاً أخرى، فالمفارقة عنده إما أن تكون مفارقة لفظية أو مفارقة موقف، أما المفارقة اللفظية فأبرز منها نمطين أطلق على الأول أسلوب " الإبراز" وعلى الثاني أسلوب " النقش الغائر "[1].

وفي المقابل وضع ضمن مفارقة الموقف أنواعاً أخرى من المفارقات وهي:

١ . مفارقة التنافر البسيط.

٢ . مفارقة الأحداث.

٣ . المفارقة الدرامية.

٤ . مفارقة خداع النفس.

٥ . مفارقة الورطة. [2]

أما من ناحية الدرجات فقد تم تقسيمها إلى ثلاث درجات: [3]

١ . المفارقة الصريحة.

٢ .المفارقة الخفية.

---

(١) انظر ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٦٧.

(٢) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٢٥.

(٣) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٢٥ .

٣. المفارقة الخاصة.

ومن ناحية الطرائق والأساليب قسمت إلى أربعة أقسام: [1]

١ .المفارقة اللاشخصية.

٢. مفارقة الاستخفاف بالذات.

٣. المفارقة الساذجة.

٤. المفارقة الممسرحة.

" وقد حشد خالد سليمان أنواعاً من المفارقات وهي: مفارقة سوفوكليس (المفارقة الدرامية)، المفارقة العدمية، المفارقة التشكيكية، المفارقة الرومانسية، المفارقة الوجدانية، المفارقة الكونية، المفارقة الفلسفية، مفارقة القدر، مفارقة التواضع الزائف، المفارقة المزدوجة، المفارقة المعملية، المفارقة الهزلية، المفارقة السقراطية، المفارقة البلاغية."[2]

ويجدر بنا التوقف عند كتاب المفارقة القرآنية لمؤلفه (محمد العبد) الذي اختص بدراسة المفارقة في القرآن الكريم، وقد ركز على الجانب اللغوي فدرس اللفظة الواحدة في سياق الجملة، وبهذا المعنى اقتصر على الكشف عن وجوه الإعجاز اللغوي. وأرجو أن تكون هذه الدراسة التي ما زلنا في بدايتها كاشفةً

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦.

عن الإعجاز القصصي في القرآن الكريم.

اهتم محمد العبد بدراسة المفارقة القرآنية، فدرسها وفقاً لأنماطٍ ثلاثة وهي: النغمة واللفظية والبنائية، ونتج عن هذه الأنماط حالاتٌ أربع وهي: مفارقة الحكاية أو الإيهام، مفارقة الإلماع، مفارقة المفهوم أو التصور، مفارقة السلوك الحركي. وحلل هذه الأنماط من خلال منهجٍ وصفيّ بنائي وظيفي متكامل، ينطلق مما يقدمه خطاب المفارقة في كل نمطٍ من مستوياتٍ لغوية لعملية التحليل؛ فونولوجياً، مورفولوجياً، تركيبياً، دلالياً.

وفيما يأتي عرضٌ مجمل لهذه الأنماط:

في مفارقة النغمة بحث في الأصوات والمقاطع والتنغيم، وبيَّنَ أثرَ ذلك في نص المفارقة وبحث في ظاهرة السبك والتماسك المعجمي الذي قصد به تآلف الوحدات المعجمية التي يصاحب بعضها بعضاً ومثاله قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] فالآية الكريمة تتحدث عن أبي جهل، وبها تهكم واضح إذ قصد ذق العذاب أيها الذليل الحقير.[1]

والمفارقة اللفظية في أبسط تعريفٍ لها كما يقول العبد: " شكل من أشكال القول يساق فيه معنى ما في حين يُقصد منه معنى آخر يخالف غالباً

(١) انظر العبد، محمد، المفارقة القرآنية (دراسة في بُنية الدلالة)، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٤٣.

المعنى السطحي الظاهر، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

الأصل أن كلمة نفحة فيها خير، فنفحة طيبة أي هبة من الخير، ولكننا نرى هنا التهكم والمفارقة في استخدام النص القرآني للفظ، فنلحظ أن لفظ العذاب ينفي عن النفحة معناها المباشر ليصير المقصود المعنى الأسلوبي المفارقي"[1].

ويرى أن المفارقة البنائية تعتمد على معرفة مقصد المؤلف الساخر الذي هو من نصيب المستمع ولكنه مجهول عند المتكلم، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] ينبغي تأمل الاستفهام في ﴿أَصَلَوٰتُكَ ﴾ الذي يراد به التهكم والاستهزاء، ويلاحظ ذلك عند قول ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] حيث إنهم يخرجونه عن جهة استحقاقه للمدح بهاتين الصفتين مع كونه أهلاً لهما، ولا يريدون بهاتين الصفتين حقيقة معنييهما من العقل والأناة بل السفه والجهل.[2]

أما مفارقة الحكاية أو الإيهام فقصد بها حكاية زعم المُخاطَب أو المتحدّث عنه في المفارقة، واستعان للكشف عنها بأدواتٍ لغويةٍ أسلوبيةٍ أساسية وهي:

---

(١) انظر المرجع السابق، ص٥٤- ص٦٠.

(٢) انظر العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص٩٠- ص١٠٥.

١. بنية الدلالة التركيبية مثل استخدام " قد " مع المضارع.

٢. الصوغ اللفظي وفق زعم الضحية ممثلاً على المستوى الاستبدالي باختيار مفرداتٍ بعينها.

٣. التعريض والتلويح على سبيل التهكم والاستهزاء.[1]

ومثاله: استخدام الاستثناء بعد النفي لصناعة المفارقة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] ففي ذلك ما يصنع إيهاماً بكون الضريع طعاماً على وجه المفارقة التهكمية، فالمعنى كما يقول الزركشي: لا طعام لهم أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلاً عن الإنس، وذلك كقولك: ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد بذلك نفي الظل عنه على التوكيد، ومهما يكن من أمر فإن مفهوم الآية يوصل إلى المفارقة وأنه لا طعام لهم أصلاً، وأن الضريع الذي أطلق عليه لفظ الطعام في بنية المفارقة النحوية ضرب من السخرية بهم والتحقير من شأنهم، وذلك أن الإبل لا تقوى على تذوقه فكيف بالإنسان يتخذه طعاماً.[2]

وقد عرّف مفارقة الإلماع أنها "ملحظٌ أو إيماءةٌ تلميحية تصوب إلى شخصٍ أو شيءٍ ما قصداً إلى الانتقاص من قدره وتحقيره على وجه

(١) انظر المرجع السابق، ص٩٣.

(٢) انظر العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص٩٤-٩٥.

الخصوص."[1]

ومثاله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] إن السياق هنا لا يعرض للدواب بمعناه المباشر الذي يقصد فيه كل ما يدب على الأرض ومن ضمنها الإنسان، بل نقلت إلى معنى دلالي آخر حيث جعلت كلمة الدواب علامة على المفارقة بما تنبه به المخزون اللغوي عند المخاطبين من معاني البهيمة والتسخير وحرمان التكريم، وهناك علامات لغوية تلمع إلى أن المقصود بالدواب هنا طائفة خاصة من جنس البشر هم في جهلهم وغفلتهم عن الهدى والحق كالدواب، وهذه العلامات هي " الصم البكم الذين لا يعقلون " فهذه العلامات تساعد في الكشف عن المعنى غير المباشر في خطاب هذه المفارقة وتحديده، فقد انصبت سخرية القرآن على هذا الوضع غير المتلائم في استخدام العقول حيث إن الكفار يلغونها ويستخدمونها استخداماً لا قيمة له.[2]

وفيما يتعلق بمفارقة المفهوم أو التصور فإن " التضاد في هذا النوع يبنى على أساس التعارض بين موقف الضحية أو مفهومها للأشياء أو مسلكها، وهو عادةً غريبٌ وخاطئ ومثار انتقاد، وما يجب أن يكون عليه الأمر."[3]

(١) المرجع السابق، ص١١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١٢-١١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٢١.

ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦] والغرض في المفارقة هنا استهجان مفهوم الضحية، وذلك أنهم يسارعون في الكفر، ونتأمل انهماكهم في الإسراع فضلاً عنه دلالة الفعل ذاته على تجسيد المعنى بحركة إسراع محسوسة[١].

وأما مفارقة السلوك الحركي فهي " ترسم صوراً للسلوك الحركي لمن تقع منه أو عليه عناصرها ومكوناتها، وهي حركةٌ عضوية أو حركةٌ جسميةٌ عامة تبرز فيها عناصر خاصة مثيرةٌ للغرابة والسخرية، ويستخدم اصطلاح السلوك الحركي بمعنى المظاهر المختلفة للسلوك التبليغي غير اللفظي بين المشتركين في الخطاب، ويعد السلوك الحركي جانباً ضرورياً ومتمماً للتحليل اللغوي لخطاب المواجهة."[٢]

ونجد تمثيلاً لمفارقة السلوك الحركي في آياتٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم تصف أحوال المُعرضين والمنافقين،ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩].

إن ذكر الأصابع هنا جامع لأمرين: أحدهما التنزه عن اللفظ المكروه،

---

(١) انظر العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص١٢٣.

(٢) انظر المرجع السابق، ص١٤٥.

والثاني حط منزلة الكفار عن التعبير باللفظ المحمود إضافة إلى أنه لم يعبر عنها بالأنامل إشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار من الموت وهو يصور حالتهم النفسية وما أصابهم من الذعر والهلع (١).

"ومن المهم الالتفات هنا لما لم يلتفت له محمد العبد أن هذا الضرب من المفارقات يحتاج إلى مراقبٍ خفي لا يتنبه لوجوده الفرد ضحية المفارقة الذي لن يقوم بمثل هذه الحركات لو علم بمن يراقبه، وبما أن الله تعالى في مثل هذه الآيات هو المراقب لمثل هؤلاء، فإنه القادر على رسم حركاتهم دون أن يعلموا، وعدم إيمانهم بوجود الله أوقعهم ضحية لمثل هذه المفارقات التي ترد في القرآن الكريم" (٢).

فقد اهتم الدارسون حديثاً لما يسمى لغة الجسد؛ لما لها من أهمية في صنع الخطاب، فأولوها عناية خاصة لما تقدمه من تفسيراتٍ وقراءاتٍ تثري العمل الأدبي، وقد اهتم القرآن الكريم بتصوير حركة الشخصيات المبثوثة في آياته تصويراً دقيقاً يوضح جوانب الشخصية الإنسانية في باطنها وظاهرها.

وهذه الدراسة ستقتصر على نوعين من المفارقة هما: اللفظية والدرامية، وفيما يأتي عرض موجز لبيان مفهوم كل منهما:

---

(١) العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص١٤٧.

(٢) شبانة، ناصر، المفارقة في الشعر العربي الحديث، ط١، دار الفارس، الأردن، ٢٠٠٢م، ص٧٢.

١. المفارقة اللفظية

إذا نظرنا إلى تعريفات الباحثين لها، وجدنا أن محمد العبد يرى أن هذا النوع من المفارقة هو "انتقال اللفظ من حقله الدلالي المعروف له في أصل الاستخدام إلى حقلٍ دلالي آخر بحيث يقيم مع لفظٍ آخر داخل الاستعمال اللغوي القرآني الخاص علاقةً دلاليةً جديدة من نوع التضاد أو التخالف لغايةٍ انتقادية" [١].

وتنظر سيزا قاسم إلى أن هذا النوع من المفارقة "يشتمل على دالٍ واحدٍ ومدلولين اثنين: الأول حرفي ظاهري جلي، والثاني متعلقٌ بالمغزى فهو موحى به وخفي" [٢]، ويتفق معها في هذا الرأي كل من خالد سليمان وعبد القادر الرباعي وناصر شبانة.

وبهذا المعنى تكون المفارقة اللفظية أداةً بلاغيةً أسلوبيةً وظيفتها إقامة التضاد بين ما هو مباشر وغير مباشر، وبناء عليه تكون جملة المفارقة تحمل في طياتها معنيين؛ أولهما: معنى قريب لا يحتاج إلى كبير عناءٍ في فهمه، والآخر معنى بعيد يُفهم بعد القراءة المتأنية المتفحصة للجملة والمقام الذي قيلت فيه.

ونلحظ أن القرآن الكريم حفل بتوظيف المفارقة اللفظية ولا سيما في

---

(١) العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص٥٥.

(٢) قاسم، سيزا، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، القاهرة – مصر، العدد ٦٨، ٢٠٠٦م، ص١٠٧.

معرض التهكم والسخرية من الكفار، فيقول تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨] ولا غرو في شيوع المفارقة اللفظية أكثر من غيرها من المفارقات فهي بسيطةٌ في تركيبها غير معقدةٍ، ولا تشغل حيزاً كبيراً من النص الأدبي، فربما تكون المفارقة في جملةٍ واحدةٍ وكأنها بذلك تعطي معنى واسعاً بعددٍ قليلٍ من الكلمات، وهذا هدفٌ من أهداف المفارقة.

٢. المفارقة الدرامية

إن المفارقة الدرامية أكثر التصاقاً بالفنون النثرية ومنها القصص، فهي مرتبطةٌ بسير الأحداث وتطورها عبر مراحل زمنية مختلفة. فالمفارقة هنا لا يتحدد مجالها في جملةٍ كما هو الحال في المفارقة اللفظية ولكن يمكن لها أن تتسع وتشمل العمل الأدبي بأكمله.

ويؤكد هذا المعنى ناصر شبانة بقوله " تعتمد المفارقة الدرامية على بنية العمل أكثر من اعتمادها على علاقة الكلمات بدلالاتها، ولذلك فقد ارتبطت هذه المفارقة أساساً بالمسرح، وكانت تسمى أحياناً مفارقة سوفوكليس نسبة إلى المسرحيّ المعروف"(١).

وهذا النوع من المفارقة ليس مقترناً بالمسرح فقط، وإنما يمكن أن نجد له

(١) شبانة، ناصر، المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص٦٧.

نماذج في الأدب بعامة ولا سيما النثري منه، فالأحداث عنصرٌ أساسي من عناصر القصة ولا يظهر عنصر المفارقة إلا بتطور الأحداث وبمرور الزمن.

لقد ترجم خالد سليمان عن ميويك في كتابه (مجال المفارقة) قوله عن وجود المفارقة الدرامية في قصة يوسف عليه السلام" تتمثل في استضافة يوسف لإخوته الذين غرروا به وتآمروا عليه في السابق، ولم يكن هؤلاء الإخوة يعرفون أن مضيفهم هو شقيقهم، ولو افترضنا في هذا الموقف أن يوسف لم يكن يعلم بحقيقة هؤلاء الذين استضافهم، فإن ذلك لا يقلل من درامية المفارقة ولا يلغيها شريطة أن يكون القارئ يعرف ذلك، أي يعرف حقيقة هؤلاء الضيوف." (١)

ويبرز دور الصراع الذي يتشكل مع نمو الأحداث في الكشف عن عمق المفارقة وتأثيرها، ويذكر لنا خالد سليمان " أن (كونوب ثروول) ركز في دراسته (المفارقة عند سوفوكليس) على أن التناقض بين الإنسان بآماله ومخاوفه وأعماله وبين القدر العنيد الذي يحيط به، يوفر مجالاً واسعاً للكشف عن هذا النمط من المفارقة.

يقول D. H. GREEN: إن فهمنا للمفارقة الدرامية يستدعي إلى الذهن استحضار ثلاثة عوامل: (٢)

---

(١) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

أولاً: يقتضي توفر توترٍ في العمل القصصي، ويمكن خلق هذا التوتر من خلال وضع شخصيةٍ تتسم بالغفلة في مقابل أخرى أقوى منها أو في مقابل قوة أخرى مهما كانت هذه القوة أو الشخصية إنساناً أو إلهاً أو أية قوة مثالية أخرى، ولا بد من علاقة ما بين ما تعلمه الشخوص وما يعلمه الجمهور قائمة على شيء من التضاد أو الحرج، ولذا يخالط مشاعر الجمهور نحو الشخصية شيء من الخوف والترقب والتعاطف.

ثانياً: في هذا الوضع المحكوم بالتوتر يجب أن تكون الشخصية الأولى الضعيفة الغافلة جاهلة بحقيقة الظروف التي تحيط بها، وبهذا يكون هناك تناقض بين مظاهر الأشياء وحقيقتها.

ثالثاً: يكون الآخرون وهم المشاهدون أو الذين لا يشاركون في صنع الأحداث أو توجيهها على وعي تام بالوضع الحقيقي للشخصية الغافلة، وبالتالي فإن المشاهدين أو الآخرين يكونون على علمٍ بما سبّب إخفاق الشخصية الغافلة التي كانت تجهل حقيقة ما يجري حولها."

و" تحيلنا المفارقة الدرامية إلى أطراف ثلاثة تشترك في بناء تصور وجودي لها، فهناك الشخصية الجاهلة والشخصيات الأخرى والجمهور. أما الطرف الأول فهو الواقع في حيز الجهل متسم بالغفلة في مقابل قوة أخرى وهذا الطرف قائم بأفعال يجهل حقيقة أساسية فيها. أما الطرف الثاني فهو الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى في العمل، واللافت أن هذه الأطراف في

الغالب تقع في حيز المعرفة إذ تدرك الحقيقة الأساسية لكنها تترك الطرف الأول يتخبط في عماه وجهله لترى نتيجة ذلك، غير أن الطرف الثاني قد يشترك والطرف الأول في أنهما يقعان في حيز الجهل. أما الطرف الثالث فهو القارئ أو المتلقي أو جمهور المشاهدين؛ هذا المتلقي يقع في دائرة المعرفة إذ يفترض فيه (أن يعرف حقيقة ما يدور)."[١]

---

(١) خليفة، أحمد، المفارقة في قصص زكريا تامر، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م، ص٢٧.

مقاربات عربية لمصطلح المفارقة

إذا بحثنا في جذر المفارقة عند ابن منظور نجد أن الفَرْقَ خلاف الجمع، فَرَقَهُ يَفْرُقُه فَرْقاً وفارَقَ الشيءَ مُفَارقةً وفِرَاقاً أي بايَنَهُ، والاسم الفُرْقة وتَفَارق القومُ: فَارَقَ بعضهم بعضاً.

والفرق: الفصل بين الشيئين وهذا في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾ [المرسلات: ٤] ومفرق الطريق ومفرقه متشعبه الذي يتشعب منه طريق آخر، وقولهم للمفرق مفارق.[١]

فالجذر اللغوي للمفارقة جاء موافقاً لمفهومها الاصطلاحي الذي يقوم على التعارض والتضاد بين طرفين.

ولا يخفى على المتأمل أن الفعل فارق على وزن فاعل يكون مصدره على وزن فعال أو مفاعلة، فراق أو مفارقة، ولم ترد كلمة مفارقة في القرآن الكريم مطلقاً، ولكن ورد المصدر القياسي الآخر "فِراق" مرتين في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٨].

ومهما يكن من أمر فإن الفعل فارق بما يتضمنه من فعل المشاركة الذي

---

(١) انظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٩٧م، مادة (فرق).

يفترض حتمية وجود طرفين أو بنيتين أو معنيين كما هو حال المفارقة، فإنها تجعل من القارئ شريكاً أساسياً لمبدع النص، وكأن هناك لغة حوار سرية بين المبدع والمتلقي.

إنّ المفارقة بهذا اللفظ لم ترد في كتبنا البلاغية النقدية القديمة، لكننا نجد لها ما يقاربها في المعنى من مثل: التشكك والمتشابهات وتجاهل العارف والتهكم والتعريض وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح والتورية والتشبيه البليغ والتضاد والمشترك اللفظي والترادف.

وسنعرض هنا لأكثر المصطلحات البلاغية التي قاربت مفهوم مصطلح المفارقة لتأصيل هذه النظرية في بلاغتنا العربية، ونقف عند الكتب التي عُنيت ببلاغة القرآن الكريم موضوع بحثنا بوجهٍ خاص.

أولاً: التعريض

ورد التعريض عند العلوي بمعنى " التعريض خلاف التصريح، ومعناه في لسان علماء البيان: هو اللفظ الدال على المعنى الحاصل عند النطق بالقرينة لا به"(١).

وأما التعريض عند الزركشي فجاء قوله فيه: " إنه الدلالة على المعنى من

---

(١) العلوي، يحيى، الإيجاز لأسرار كتاب الطراز، تحقيق عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٣م، ص٣٩٥.

طريق المفهوم، وسمي تعريضاً لأن المعنى باعتباره يُفهم من عُرض اللفظ أي من جانبه، ويسمى التلويح؛ لأن المتكلم يلوّح به للسامع ما يريده كقوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] لأن غرضه بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة عليهم بما عرّض لهم به من عجز كبير الأصنام عن الفعل مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا، ولم يرد بقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة"(١).

ولعل مفهوم التعريض بوصفه مصطلحاً بلاغياً قد اشترك مع المفارقة في توجيه الخطاب بطريقةٍ غير مباشرة تُفهم من خلال السياق ووجود القرائن.

ثانياً: التّهكُم

ورد في كتاب البرهان أن التهكم: " الاستهزاء بالمخاطب مأخوذ من (تهكّمت البئر) إذا تهدمت كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] وهو خطاب لأبي جهل؛ لأنه قال: (من بين جبليها - يعني مكة - أعز مني ولا أكرم) "(٢).

ويقول العلوي في بيان التهكم: " وقوله تعالى ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا

(١) الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد منصور، مكتبة دار التراث، القاهرة - مصر، ص٣٠١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٤.

أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨] فإيراد البشارة إنما يكون في الأمور المحبوبة والأشياء المستلذة، فإذا ورد على عكس ذلك كانت تهكماً وهكذا حال الصفات المحمودة؛ فإن بها تعظيم الموصوف ورفع قدره، فإذا كانت واردةً على غير ذلك كانت تهكماً بحال الموصوف وحطاً من درجته"[١].

ومما لا شك فيه أن أسلوب التهكم يقوم على توظيف دالٍ لمدلول مخالف له في الاستعمال، وهذا يخلق نوعاً من التضاد الذي يشكل البنية الأساسية لمفهوم المفارقة.

"ذلك أن التهكم يقوم على قول شيء لكن في الوقت نفسه يقصد ضده فعلاً، وهذا الضد يتطلب من المتلقي أن يصل إليه حين يرفض ظاهر الكلام مما يترتب على ذلك البحث عن المراد فعلاً في باطن الكلام."[٢]

ولسائلٍ أن يسأل: لماذا لم تُعَنون هذه الدراسة باسم أسلوب التهكم أو التعريض في القرآن الكريم إذا كانت تحمل في طياتها مفهوم أسلوب المفارقة الحديث؟

فالإجابة تكون من وجهين؛ الأول: أن مثل هذه المصطلحات البلاغية القديمة لا تتسع لمفهوم المفارقة الحديث في صوره وأشكاله ووظائفه، والثاني:

---

(١) العلوي، يحيى، الإيجاز لأسرار كتاب الطراز، ص٤٦٢.

(٢) العبد، محمد، المفارقة القرآنية، ص١٩.

أنه ربما يُعين على كشف أنواعٍ من المفارقات اللفظية التي تختص بلفظةٍ ولا يكون هذا في عملٍ أدبي بأكمله.

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم بوصفه معجزةً بيانيةً خالدة قد أعلى من شأن المتلقي إذ جعله طرفاً أساسياً في إيصال الرسالة، وهذا من شأنه أن يُمكّن المتلقي من توظيف الأدوات النقدية الحديثة للكشف عن مواطن الجمال فيه.

وهذا لا يعني الاستغناء عن علوم البلاغة القديمة التي تُعدُّ النواة الأساسية لهذا الأسلوب الحديث، بل سيتم توظيف مثل هذه العلوم في المجال المناسب لها.

وظيفة المفارقة

مما لا شك فيه أن للمفارقة أهميةً كبرى لما توفره من متعةٍ جماليةٍ وتمنحه من صِبغةٍ موضوعية على النص الأدبي، تجعل المتلقي شريكاً أساسياً في عملية الإبداع الأدبي كما يقول شليجلِ " في أن المفارقة طريقةٌ خفية لتشاطر المعاني يمكن للفنان من خلالها أن يوفر لنفسه مكاناً بين المجموعة الذكية المختارة من قرائه للتوصل إلى نوع من الفهم المشترك للموضوع "[1] وبهذا المعنى يكون المبدع واحداً من المتلقين يتبادل معهم القراءات المتعددة للنص الواحد، وبذلك تكون المفارقة وسيلة ناجحة في إيجاد نوع من الموضوعية التي تنأى عن الذاتية المفرطة.

ويرى ميويك أن "المفارقة وظيفة إصلاحية في الأساس، فهي تشبه أداة التوازن التي تبقي الحياة متوازنة أو سائرة في خطٍ مستقيم تعيد إلى الحياة توازنها عندما تحمل الحياة على محمل الجد المفرط في جديته، أو عندما لا تحمل على ما يكفي من الجد."[2]

وفي المقابل نجد أن ثروول يرى أن وظيفة المفارقة تكمن في "أن التشويق

---

(١) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٣٦.

(٢) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص١٦.

المفعم بالحيوية يقوم عندما يتم وضع الظروف المحتمة أو الشخصيات أو البواعث أو المبادئ في وضع يتصف بالتناقض، بحيث يصبح الخير والشر نسيجاً متداخلاً في كل جانب، وبحيث نرى أنفسنا مجبرين على إعطاء كل جانب حصة متساوية من التعاطف، هذا في الوقت الذي ندرك فيه أن ليس من قوة أرضية بإمكانها أن توفق بينهم."[1]

ويقول ماكس بيربوم إن " المفارقة أسلوبياً تعني إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيراً "[2].

" وتتعدد أشكال المفارقة وأهدافها، فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر وقد تكون أشبه بستار رقيق يشف عما وراءه من هزيمة الإنسان، وربما أدارت المفارقة ظهورها لعالمنا الواقعي وقلبته رأساً على عقب، وربما كانت المفارقة تهدف إلى إخراج أحشاء قلب الإنسان الضحية لنرى ما فيه من متناقضات وتضاربات تثير الضحك"[3].

" فهذا عدنان خالد يرى أن المفارقة تحقق أغراضاً ثلاثة[4]:

---

(١) سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص٣٦.

(٢) ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٦٣.

(٣) إبراهيم، نبيلة، فن القص بين النظرية والتطبيق، ص١٩٨.

(٤) عبد الله، عدنان خالد، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٢٧.

أ. أن المفارقة تباغت القارئ وتجفله وبالتالي تثير انتباهه.

ب. إن المفارقة تحفز القارئ إلى التفكير والتأمل في موضوع المفارقة.

ج. إن كانت المفارقة ناجحة فإنها تمتع القارئ (انفعالياً)؛ لأنها تمنحه حِسّاً باكتشاف علاقات خفية في القصيدة."

" ويرى أيمن صوالحة أن وظيفة المفارقة تحدد في أربعة أمور:

١. تقوية النص عن طريق القارئ الذي يرفض المعنى المباشر للنص بحثاً عن معناه الخفي.

٢. إحداث أبلغ أثر بأقل الوسائل تبذيراً.

٣. الإثارة والمتعة.

٤. التوازن. [١]

ويرى السعدني أن " المفارقة تعبير عن موقف مخالف بطريقة غير مباشرة، ربما كان ذلك لخداع الرقابة أو إخفاء النوازع غير المرضية ".[٢]

---

(١) انظر: صوالحة، أيمن، المفارقة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ص١٤٣-١٧٦.

(٢) السعدني، مصطفى، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، دار المعارف، الاسكندرية، ص٢١٣.

وبما سبق نستنتج أن توظيف المفارقة بوصفها أداة بلاغية أسلوبية في أي عمل أدبي يُضفي عليه مسحةً من جمال أخاذ وتأمل عميق، فطبيعة المفارقة أنها تقول شيئا دون أن تنطق به، فالإيماء أو التلميح يكون أعمق تأثيراً من التصريح، وبذلك يكمن دور المتلقي بالتقاط المعنى المُراد دون ملاحظته بشكلٍ مباشر وهذا يتطلب متلقياً ذا عقلية متوقدة تمكنه من الكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي.

إنّ توظيف أداة المفارقة في القرآن الكريم له خصوصية كبرى؛ فقد أعطى للمتلقي عبر الأزمنة المختلفة مهمة استنباط الرسالة وفهمها والتقاط المعنى المراد بطريقة تعلي من عقل الإنسان ودوره في فهم مراد الخالق سبحانه وتعالى.

مفهوم القصص القرآني

يقول ابن منظور في لسان العرب: " القصص بالفتح: الخبر المقصوص، وُضِعَ موضعَ المصدر حتى صار أغلب عليه، والقصص بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب" (١).

وورد في معجم مقاييس اللغة: " القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبُّع الشّيء، من ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثَر إذا تتبَّعتَه، ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح وذلك أنَّه يُفعَل به مثل فِعلِهِ بالأول فكأنه اقتص أثره ومن الباب القِصَّة والقَصَص، كل ذلك يُتتبّع فيذكر" (٢).

ويقول الراغب الأصفهاني: " القص تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره والقصص: الأثر، والقَصص: الأخبار المتتبعة." (٣)

والتتبع والقصّ لا بد فيه من أمرين كما يرى صلاح الخالدي:

" الأول: تتبع الشيء أو الخبر كما هو وعلى وجهه الصحيح الذي حدث

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قصص).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مادة (قصص).

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، دمشق – سوريا، ١٤١٢هـ، ص٦٧١.

عليه.

الثاني: التساوي عند التتبع والحرص على المساواة أثناء المتابعة، ففي القص المادي تكون المساواة مادية وملحوظة، فقصُّ الشَّعر والحجر والعظم يكون بوضع الجميع على قص ومقاسٍ واحد لا يطول ولا يقصر.

وفي القص المعنوي للروايات والأخبار لا بد من المساواة عند التتبع والمتابعة بأن يكون الخبر مروياً ومقصوصاً كما هو لا يزيد القاص شيئاً من الأحداث والإضافات على الأصل، فعليه أن يكون كلامه مساوياً للخبر الواقع من قبل بدون زيادة ولا نقصان" [1].

" وقد وردت مادة قصص في القرآن الكريم ثلاثين مرة باشتقاقات وتصريفات متعددة وذلك على النحو التالي:

١. في صورة الفعل الماضي: أربع مرات.

٢. في صورة الفعل المضارع: أربع عشرة مرة.

٣. في صورة فعل الأمر: وردت مرتين.

٤. وفي صيغة (القصص) الجمع ست مرات.

---

(١) الخالدي، صلاح، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ط١، دار القلم، دمشق – سوريا، ١٩٩٨م، ج١، ص ٢٠.

٥. و(القَصاص) أربع مرات[١]

وإذا نظرنا لمادة قَصص كما وردت في القرآن الكريم فإننا نجدها تحمل معاني متعددة تبعا للسياق الذي وردت فيه ومن هذه المعاني:

١. الخبر، قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

٢. تتبع الأثر، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

٣. التنبيه على الأدلة بالتلاوة والتأويل [٢]، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

٤. البيان والإعلام، ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] أي

(١) انظر الدقور، سليمان، القصص القرآني، (أهدافُه وخصائصهُ ومنهجهُ)، ط١، دار الفضيلة، عمان – الأردن، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص١١.

(٢) انظر ملكاوي، بثينة محمود، القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، ٢٠٠٠م، ص٧.

نُبين لك ونعلمك بذلك أحسن البيان والإعلام"[1].

يقول ابن عاشور: " القصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم." [2]

ويقول محمد حجازي: " الاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشف عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها، لتكون العبرة والعظة." [3]

ويقول محمد خير العدوي: "هي كل موجود بين دفتي المصحف أخبر به الله تعالى رسوله محمدا بحوادث الماضي، بقصد العبرة والهداية سواء كان ذلك بين الرسل وأقوامهم أم بين الأمم السابقة أفراداً وجماعات." [4]

ويرى سليمان الدقور أن " المقصود بالقصص يجب حصره في الأخبار

---

(١) انظر الدقور، سليمان، اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، ٢٠٠٥م، ص٢٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨١م، ج١، ص ٦٤.

(٣) حجازي، محمد، الوحدة الموضوعية في القرآن، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٨٩.

(٤) العدوي، محمد خير، معالم القصة في القرآن الكريم، ص٣٣.

الماضية على وقت نزول القرآن الكريم، وأن سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - لا تعد من قبيل قصص الأنبياء؛ لأنها ليست من الماضي الذي حدث قبل نبوته - صلى الله عليه وسلم - بل أحداث ووقائع عايشها المسلمون لحظة بلحظة في حياتهم اليومية." (١)

وعلى هذا نستطيع القول أن ليس كل ما ورد في القرآن الكريم من أحداث يُعدُّ قصصاً، فالقصص كما رأينا يدل على تتبع أخبار الماضين، وهذا من شأنه أن يخرج الأحداث التي وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما تنبأ به القرآن من أحداث مستقبلية من مفهوم القصص القرآني، فالمتتبع للفظة (قصص) ومشتقاتها في القرآن الكريم يرى أنها اقترنت فقط برواية أخبار الأنبياء والحوادث الغابرة قبل البعثة المحمدية، فلا نجدها مثلاً في الأحداث التي كانت تدور في فلك الدعوة الإسلامية من حديث الإفك والغزوات أو ما تنبأ القرآن بحدوثه.

وقد اقترنت لفظة (النبأ) بالقصص القرآني الذي يتضمن أخبار الرسل والحوادث التي كانت قبل بعثته عليه السلام كقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣] ومثله في مطلع قصة ابني آدم في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]

(١) الدقور، سليمان، القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهجه، ص١٨.

أما الحديث عن الوقائع المرتبطة بالدعوة الإسلامية والأحداث التي تنبأ القرآن الكريم بحدوثها في المستقبل فقد اصطلح عليها القرآن الكريم بالأخبار كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] " وحين ننظر في القصص القرآني نجد أنه يجيء بمادته كلها من الماضي البعيد، دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو متوقعات المستقبل." (١)

ومما يؤكد أن القصص القرآني انحصر في الحوادث الغابرة وقصص الأنبياء ما ارتبط بغرضه الديني المتعلق بإثبات الوحي والرسالة؛ إذ إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كما هو معروف أميّ لا يقرأ ولا يكتب فمن الذي علمه وأخبره بهذه القصص؟ كما أنه لم يخالط أحبار اليهود.

وإن الهدف الذي من أجله سيقت مثل هذه القصص وهو الغرض الذي يتناسب مع قص أحداث الأمم السابقة والحوادث الغابرة، ولا يتناسب بحال من الأحوال مع الأحداث التي تجري في زمن الدعوة الإسلامية، أو الأحداث التي ستحصل مستقبلاً؛ لأن أهدافها وغاياتها مختلفة؛ إذ ترد مادة قصص للمرة الأولى في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢] تعقيباً على قصة عيسى وبعد خطاب الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد، وارتبط بالهدف الديني وهو وحدة

(١) الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص ٤٦.

الأديان وأن الله واحد لا شريك له. وترد قصصناهم للمرة الثانية في آخر سورة النساء بعد ذكر جملة من الأنبياء ويكون الخطاب موجهاً للنبي الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ونرى ذلك أيضاً في سورة هود: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] وفي قوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣].

كما أنّ للقصص القرآني جملةً من الخصائص الفنية التي تميزه عن غيره من الوقائع التي وردت في القرآن الكريم، وهذا ما سيأتي بيانه لاحقاً.

وقد أجاب عبد الكريم الخطيب عن تساؤل يمكن أن يخطر على بال أحدهم وهو: لماذا لم يشمل القصص القرآني الأحداث الحاضرة والمستقبلية؟ وكانت إجابته من وجوه: (١)

" أولاً: هذه الأحداث - التي تنبأ القرآن بها - تحدث عنها القرآن وكشف عن وجهها من قبل أن تقع، فجاءت على الوجه الذي صورها به دون أن تفقد لمحة واحدة من ملامحها، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات

(١) الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٤٨.

وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت، كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة في جانب، وإلى صورها الواقعة في المرآة في جانب آخر، وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصاً؛ لأن القص كما قلنا تتبع الآثار الماضية، والتفات إلى وراء لا نظر إلى قدام.

ثانياً: ليس القصص مجرد أحداث تروى، وإنما هو أحداث تتفاعل وتتحرك وتلد عظاتٍ وعبراً، وليس كذلك الشأن في الأحداث القائمة أو المستقبلة.

ثالثاً: ومعنى القصص لغة يتوافق مع ما تحمله القصص القرآني من تقصي الآثار وتتبعها، وهذا لا يكون إلا في الماضي، والغرض منه هو تذكير الناس وإلفاتهم إليها."

القصص القرآني والقصة الفنية

يختلف القصص القرآني تمام الاختلاف عن القصة الأدبية الفنية، وإن تلاقى في بعض جوانبه التي تكمن في عناصر أية قصة من شخصية وأحداث وزمان ومكان وحوار، إلا أن القصص القرآني تفرد عن القصة الأدبية في أن مبدعَه هو الخالق الحق سبحانه وتعالى، وأنَّ الغرض منه لم يكن للتسلية أو المتعة شأن أي قصة أدبية، وإنما جاء هذا القصص مبثوثاً في آيات القرآن الكريم الدالّة على عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته في خلقه، واتخذ من القصص أسلوباً جذاباً يؤثر في الأفئدة والعقول.

ولبيان أهم وجوه الاختلاف بين القصص القرآني والقصة الأدبية، كان لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية لتأصيل الجذر اللغوي من مادة (قَصص) بفتح القاف و(قصص) بكسر القاف وذلك من خلال ما ذكره الجوهري في كتابه (تاج اللغة وصحاح العربية)، فإن " الفرق بين القصص بالفتح وبين القصص بالكسر هو أن القصص بكسر القاف هي جمع قصة، نقول فلان يكتب القِصص ويرويها، أما القصص بفتح القاف فهي الأخبار والروايات التي يتتبعها القاص ويرويها، كما أنه يرد بمعنى المصدر نقول: قصَّ قصصاً وقَصّاً."[1].

(١) الجوهري، إسماعيل، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م، انظر مادة (ق ص ص).

وهنا نستطيع أن نبين بوضوحٍ سبب تسمية القَصص بهذا الاسم، فأصله اللغوي يدل على تتبع الأثر وذلك يتوافق مع قص أخبار الأمم السابقة كما كان حالها دون زيادة أو نقصان، وبهذا يختلف القصص القرآني عن القصة الأدبية التي يكون للخيال فيها دور أساسي "، " فالقصة حوادث يخترعها الخيال" وهي به لا تعرض لنا الواقع كما تعرضه كتب التاريخ والسير، وإنما تبسط أمامنا صورة مموهة منه. ولا يفترض في الكاتب الذي يتجه اتجاها واقعياً في قصته أنْ يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلاً" [١].

ويعرّف محمد نجم القصة الأدبية أنها: "مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، ويكون نصيبها في القصة متفاوتاً من حيث التأثر والتأثير."[٢]

ويقول سليمان الدقور: " إن القصص بالكسر تكون الإشارة فيها إلى الأحداث والأخبار والأمور التي جمعتها القصة وحوتها، أما القصص بالفتح فالإشارة هنا تكون إلى طريقة قص الأخبار وعرض الأحداث." [٣]

---

(١) نجم، محمد، فن القصة، ط١، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م، ص١٠.

(٢) نجم، محمد، فن القصة، ص٩.

(٣) الدقور، سليمان، القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهجه، ص٧.

وعلى هذا فإن القصص القرآني قصص صادق يروي لنا الأحداث دون تغيير أو تبديل، فالحقيقةُ هي الأساس لهذا القصص، وبهذا ينأى عن مفهوم القصة الأدبية الحديثة التي لا تلتزم بالصدق الواقعي وإن كانت شخصياتها من الواقع، إلا أن كاتب القصة يتحكم بشخصياته كما يشاء " فالقصة القرآنية بنيت بناء محكماً من لبنات الحقيقة المطلقة التي لا يطوف بحماها طائف من خيال ولا يطرقها طارق منه." (١)

" فالقصص الحسن هنا ليس (الرواية المتخيلة) من الواقع، وليس (الرواية المصنوعة) بمحاكاة الواقع، إنما هو التاريخ، والخبر، وحقيقة ما كان. إنه مشاهد التاريخ في حركة وصور وأصوات ليس في حقيقتها- كما تصدر عن المتحركين والمتكلمين في هذا القصص الحق - إلا حركة القوانين التي تحكم البشر بمشيئة الله إلى غايته." (٢)

ولما كان القصص القرآني وسيلة من وسائل القرآن الكريم المتعددة لدعوة الناس إلى دين الله وهدايتهم من الظلمات إلى النور؛ فقد تضمنت القصص مجموعة من الرسائل الوعظية التي تكون في بداية القصة أو نهايتها، وهذا الأمر ضرورة يقتضيها الغرض الديني بخلاف القصة الفنية التي يحاول

---

(١) الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٤٠.

(٢) سالم، أحمد، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م، ص٢١٣.

كاتبها أن يبتعد عن الرسائل المباشرة، لأن ذلك يعد عيباً فنياً.

" ثم إن روعة القصة القرآنية لم تكن في جدة موضوعها. فقد تكون ذائعة عند العرب ، معروفة في أوساطهم كقصة أصحاب الفيل ، ولكن روعتها في الأضواء التي سلطتها على وقائعها وفي الروح الجديدة التي اقتحمت بها القلوب ، وفي الآفاق الفسيحة التي فتحت عليها للمعرفة نوافذ"(١).

" ثم إن شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث نحو وجهة معينة ، وتؤثر على نتائجها التي كثيراً ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدروا أو على غير ماعرفوا ، هو عنصر هام من عناصر التأثير في هذا القصص الذي يملأ الإحساس رهبة ورغبة باعتبار أن مصدره هو مصدر القدرة المطلقة والإرادة النافذة في مجرى تلك الأحداث." (٢)

---

(١) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٤م، ص٤٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣٩.

أنواع القصص القرآني

إذا نظرنا إلى الأحداث والأخبار الواردة في القرآن الكريم نجدها تدور في فلك قصص الأنبياء مع أقوامهم، مثل قصة موسى وهود وإبراهيم وشعيب ولوط عليهم السلام، وقصص تتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم؛ كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت وابني آدم وأصحاب الكهف... وغيرها من القصص.

وهناك من الباحثين من يعدّ الأحداث التي دارت في زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قصصاً كالغزوات مثل غزوة بدر وأحد، وغزوة حنين وتبوك، والقصص الغيبيّة التي تنبأ القرآن بها، ومن هذا النوع قصة حوار عيسى عليه السلام مع ربه عزَّ وجلَّ كما جاءت في سورة المائدة، ومنهم الباحثة نسرين بدور حيث قسمت القصص إلى:

١. قصص الأنبياء.

٢. قصص تتعلق بحوادث غابرة.

٣. قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن الرسول.

٤. قصص غيبية. [١]

(١) بدور، نسرين، بنية السرد في القصص القرآني، جامعة البعث، سوريا، ٢٠٠٧م، ص١٠.

وهذان النوعان الأخيران من القصص لا يدخلان في نطاق دراستنا التي اختصت بدراسة القصص الغابرة السابقة لعصر النبوة، فهي التي تتوافق مع مفهوم القصص بمعنى تقصي الأخبار وتتبع الآثار.

ويمكننا أن نقسم هذه القصص من حيث النزول من السماء إلى قسمين؛ قسمٌ نزل بطلب من معاصري الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - مثل قصة يوسف وقصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقسم لم ينزل من السماء بطلب، وذلك هو الأعم الأغلب في قصص القرآن.

ويمكننا النظر إلى هذه القصص من زاوية الطول والقصر كما فعل سيد قطب:

١. قصص طويلة، كقصة موسى وقصة عيسى وقصة إبراهيم عليهم السلام

٢. قصص متوسطة الطول، مثل قصة آدم وقصة نوح ثم قصة داود ثم قصة سيدنا سليمان عليهم السلام.

٣. قصص قصيرة مثل قصة صالح وقصة هود وقصة شعيب وقصة لوط وقصة إسماعيل وقصة يعقوب عليهم السلام.[1]

---

(١) انظر قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، ط١٨، دار الشروق، ٢٠٠٦م، ص١٣٤- ١٣٨.

ويرى الحطيني أن الخطاب الإلهي قدم القصة القرآنية من خلال أنماط مختلفة ومعجزة وغير مألوفة من السرد يمكن إجمالها في خمسة أنماط رئيسة:

١. النمط الأول: تدور حكايته حول شخصية مركزية واحدة يتم تقديم مراحل حياتها وظروف نشأتها وتطورها وصولاً إلى نهاية الحكاية، وذلك من خلال سور قرآنية متعددة وتشمل حكايتها قصصاً مستقلة فنياً، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحكاية الأصلية، ومن أنصع الأمثلة عليها قصتا نوح وموسى عليهما السلام.

٢. النمط الثاني: تدور حكايته حول شخصية مركزية واحدة من خلال سور قرآنية متعددة، ولكن هذه الحكاية لا تحتوي على حلقات سردية منفصلة وتتمحور حول حدث أساسي واحد مثل قصتي أيوب ويونس عليهما السلام.

٣. النمط الثالث: هو نمط الحكاية المستقلة التي يخصص لها سرد واسع، وتعنى بالتفاصيل الحكائية والمشاهد والمواقف وتحليل الشخصيات، ويتضح ذلك جلياً في قصة يوسف عليه السلام.

٤. النمط الرابع: هو نمط الحكاية القصيرة التي ترد في سورة واحدة ولا تتم إعادتها أو إعادة جزء منها مرة أخرى، مثل قصص أصحاب الجنة في سورة القلم وأصحاب الأخدود في سورة البروج.

٥. النمط الخامس: هو نمط الحكاية القصيرة التي تشغل سورة قصيرة

كاملة (قصة أصحاب الفيل).[1]

وهناك من الباحثين المحدثين من يقسم القصص القرآني كتقسيم القصة الفنية غافلاً عن الفرق بينهما؛ فقد قسم خلف الله في دراسته الفن القصصي في القرآن الكريم القصة إلى ثلاثة أقسام: تاريخية وتمثيلية وأسطورية، ويقول في تعريف القصة: "حين نذكر لفظ قصة إنما نقصد شيئا آخر أهم من متابعة الخبر أو الحديث، نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الأحداث التي دارت حوله في القصة لم تقع أو وقعت للبطل ولكنها نظمت في القصة على أساس فني بلاغي فقدم بعضها وأخر آخر..."[2]

ولعل الباحث قد جانب الصواب في فهمه لموضوع القصص القرآني، فلا نستطيع بأي حال من الأحوال عد القصص القرآني عملاً فنياً مستقلاً بذاته، بل هو جزء أصيل من مادة القرآن الكريم ملتزم بخصائصه البلاغية وبهدفه الديني بوصفه رسالة سماوية، ولهذا لا يجوز تصنيف القصص الوارد في القرآن الكريم إلى ما قسمت إليه القصة الفنية.

---

(١) انظر الحطيني، يوسف، ملامح السرد القرآني، اتحاد الكُتّاب العرب، دمشق – سوريا، ٢٠٠٩م، ص١٣-١٤.

(٢) خلف الله، محمد، الفن القصصي في القرآن، ط٤، سِينا للنشر ومؤسسة الانتشار الغربي، ١٩٩٩م، ص١١٨.

إن " القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها." (١)

(١) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص١٤٣.

خصائص القصص القرآني

لقد امتاز القصص القرآني بجملة من الخصائص التي جعلت منه قصصاً مغايراً لأي قصة بشرية.ومن هذه الخصائص:

أولاً: التكرار

لا نقصد بهذه السمة تكرار القصص في أكثر من موضعٍ بالمعنى ذاته وبالمفردات ذاتها في القرآن الكريم، وإنما هو تقديم القصة بطرق متنوعة في كل مرة لمناسبة السياق الذي وردت فيه والهدف الذي أنيطَ به. " وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم عامة، وهو في سرد القصة عنصر مكوّن في بنيته سواء كان تكراراً للقصة أم تكراراً لبعض عناصرها" [١].

" إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن هو من إعجاز القرآن تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها، بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة وفي أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه، وأيضاً فإن من جمال النظم القرآني أنه ينقل المشاهد بجميع أبعادها وبأمانةٍ وصدق، ولكن على دفعات ولقطات وليس في معرض واحد حتى لا تتراكب وتتراكم، وإنما يوزعها ويباعد بين مواضعها بحيث يمكن أن تستقل كل لقطة منها بذاتها مستغنية عن كل

---

(١) بدور، نسرين، بنية السرد في القصص القرآني، ص٩.

تفصيل " [1].

وربما عرضت القصة القرآنية على شكل حلقات، فقصة موسى على سبيل المثال عرضت حلقاتها على شكل مشاهد، يروى كل مشهد بشكل منفصل ومستقل عن المشاهد الأخرى التي تكوّن في مجملها قصةً طويلة، وفي المُقابل نستطيع قراءة كل مشهد من هذه المشاهد كقصة مستقلة بذاتها.

وقد وضع مناع قطان جملة من حكم تكرار القصص، فرأى أنها " تدل على بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها؛ فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة وتعبر عن قوة الإعجاز، أضف إلى ذلك أن لتكرار القصص أهمية هي تمكين عبرها في النفس، كما أن تكرار القصص يأتي موافقاً للغاية التي تساق من أجلها القصة" [2].

"على أن هذا التكرار ليس عيباً بل هو ميزة أخرى تضاف على مزايا القصص القرآني، فإنه من المستحيل على أي كاتب مهما بلغت درجة كفاءته ونبوغته أن يحكي لك قصة واحدة عدة مرات دون أن يهبط مستواه ويفقد

---

(١) عبد ربه، السيد عبد الحافظ، بحوث في قصص القرآن، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م، ص٥٥.

(٢) قطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦٢ .

تأثيره، فضلاً عن عجزه عن الإتيان بجديد يضاف لذات القصة." [1]

" فتكرار القصة في القرآن وثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد؛ غرضاً فنياً يتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى. وغرضاً نفسياً بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس."[2]

وعلى هذا نرى أن التكرار سمة بلاغية في القرآن الكريم عامة مرتبطة بهدفه الديني، إضافة إلى أن القصص في القرآن الكريم لم تتكرر أحداثه بالتفاصيل ذاتها في كل مرة كانت تعرض بها القصة، وإنما كررت الحادثة بطرق مختلفة تتناسب والسياق الذي وردت فيه، وفي هذا قمة الإعجاز البياني والبلاغي.

ثانياً: القصة لا ترد بتمامها دفعة واحدة

بل يكتفى بالجزء الذي يناسب الغرض الذي تسرد القصة من أجله. فلم تكن عناية القرآن الكريم موجهة إلى سرد القصص بشكل متتابع ولكن

---

(١) انظر عسكر، السيد، القصص القرآني إقناع وإبداع، ط١، دار البشير، مصر، ٢٠٠٠م، ص٢٧.

(٢) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة، ص ١١٦.

كان يعرض ما ينسجم مع موضوع الآيات، فهو ليس كتاباً تاريخياً يعنى بتسجيل الأحداث وبتسلسلها التاريخي.

" ونادر جداً أن يعرض القرآن باسترسال وفي موضع واحد قصة مترابطة الأجزاء متسلسة الحلقات مثل قصة يوسف ومثل قصة موسى في سورة القصص؛ لأن القصة لم ترد لذاتها، ولم تتناول أخبار الماضين كما تناولها العهد العتيق وكتب التاريخ، وإنما استخدمت وسيلة من وسائل التأثير في غرس العقيدة، لذلك جاءت القصة الواحدة موزعة في عدة سور بحسب المناسبات، وكلما تكررت المناسبة أعيد ذكر ما يقتضيه الحال منها." (١)

ثالثاً: استخراج التوجيهات والعظات من القصة

أو الإعلان عنها في ثنايا القصة وختامها، وهذا أمر طبيعي يعود إلى الغرض الديني الأخلاقي الذي تهدف القصة إليه، فالسرد القصصي جزء من بنية القرآن الكريم الذي يعد رسالة السماء إلى الأرض.

رابعاً: تنوع طريقة العرض

وفي قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة على النحو التالي:

- فمرة تذكر ملخصاً للقصة يسبقها من ثم يعرض التفصيلات، مثل

(١) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة، ص١٣٩.

قصة أصحاب الكهف.

• ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة من أولها، مثل قصة موسى في سورة القصص.

• ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، مثل قصة مريم عند مولد عيسى.

• ومرة يحيل القصة تمثيليةً، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها. (١)

خامساً: تنوع طريقة المفاجأة

• فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة، مثل قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح.

• ومرة يكشف السر للنظارة، ويترك أبطال القصة عنه في عماية مثل قصة أصحاب الجنة.

• ومرة يكشف بعض السر للنظارة، وهو خاف على البطل في موضع وخاف على النظارة في موضع آخر في القصة الواحدة مثل قصة عرش ملكة سبأ.

• ومرة لا يكون هناك سر بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آنٍ

---

(١) انظر قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص ١٤٨-١٥٠.

واحد، مثل قصة مريم حين تتخذ من دون أهلها حجاباً.[1]

سادساً: إقامة العرض على التصوير

ومما يتميز به القصص القرآني اعتماده على التصوير، في سير أحداثه ورسم شخصياته وسرد حواراته ووصف مشاهده، مما يشكل في مجمله قصصاً نابضاً بالحياة.

فهذه الحركة في معناها الشامل هي التي تجعل المشاهد في القصة حية والأحداث نابضة والمواقف المختلفة متفاعلة والسياق ديناميكياً. وكثيراً ما يستعين القرآن على إبرازها:

١. بالوصف الدقيق المصور، كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته في قوله ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧].

٢. بالمعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية ، كما جاء في القرآن على لسان مريم وقد تمثل لها الملك رجلاً يفجؤها في خلوتها في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨] وكقولها وهي تعاني ألم المخاض في قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا

(١) انظر قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص١٥٠-١٥٤.

وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣].

٣. بإبراز الصراع منسجما مع المغزى العام للقصة: صراع الخير والشر والحق والباطل والإيمان والضلال، ويكون حيناً صراعاً مادياً مثل موقف موسى - عليه السلام - مع السحرة لما رمى عصاه ورموا عصيهم، وحيناً صراعاً نفسيّاً مثل موقف إبراهيم - عليه السلام - من الكواكب والقمر والشمس وما أبان له عقله الباطن من خطأ ما كان يتوهم.[1]

(١) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة، ص٣٥٠.

أغراض القصص القرآني

لم يُؤت بالقصص القرآني من أجل المتعة والتسلية أو للتعرف على حياة أشخاص غابرين، وإنما كان الهدف من إيراد مثل هذه القصص هدفاً دينياً محضاً، يتصل بهدف الدعوة الإسلامية ونشرها.

"والأشخاص في القصص القرآني - أياً كانوا – ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم وكشف أحوالهم والتمجيد أو التنديد بأعمالهم، وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة."[1]

وأغراض القصص القرآني جزء لا يتجزأ من أغراض القرآن الكريم التي لا تنفصل عنها بحال من الأحوال كما هو القصص جزء من النص القرآني.

والمتأمل لهذا القصص يجد جملة من الأهداف والفوائد المتعلقة بغرضه الديني. وقد ذكر بعضاً منها سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن الكريم) ومنها: " إثبات الوحي والرسالة، إثبات وحدانية الله، توحد الأديان في أساسها، الإنذار والتبشير، مظاهر القدرة الإلهية، عاقبة الخير والشر،

---

(١) الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٤٠.

العجلة والتريث، الصبر والجزع، الشكر والبطر."[1]

وأضاف السيد عبد الحافظ عبد ربه إلى هذه الفوائد:

١. تثبيت العقائد الصحيحة ونفي الخرافات والأفكار القديمة.

٢. تثبيت الرسول والمؤمنين معه على لزوم الدعوة إلى الحق وتحمل مشاقها، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

٣. تأييد النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم[2]، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد زاد محمد قطب على هذه الأغراض فذكر العبرة والدعوة إلى الخير وحسن المعاملة والعفة والتضحية من أجل العقيدة والحث على العدل والبعد عن الهوى.[3]

ومن الباحثين المحدثين الذين بسطوا القول في أهداف القصص القرآني

---

(١) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ص١٢٠.

(٢) انظر عبد ربه، السيد عبد الحافظ، بحوث في قصص القرآن، ص ٨٩ – ١٠٠.

(٣) انظر قطب، محمد، القصة في القرآن، دار قباء، القاهرة – مصر، ٢٠٠١م، ص ١١٥- ١٦٩.

سليمان الدقور، الذي صنف هذه الأهداف إلى أهداف ذكرت بشكل صريح في القرآن الكريم وأهداف عامة، وأهداف خاصة وذلك كما يلي:

لقد ذكر القرآن الكريم بشكل صريح ثلاثة أهداف نص عليها في سياق حديثه عن القصص:(١)

الهدف الأول: الدعوة إلى التفكير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

الهدف الثاني: تحقيق الاعتبار والاتعاظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

الهدف الثالث: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وقد ذكر الدقور الأهداف نفسها التي ذكرها سيد قطب بتفصيل أكثر تحت عنوان الأهداف العامة للقصص القرآني، ومنها:

---

(١) انظر الدقور، سليمان، القصص القرآني، ص٢٨-٣١ .

١. بيان صحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بثبوت رسالته وأن القرآن من عند الله تعالى.

٢. تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه.

٣. بيان نعم الله تعالى على أنبيائه عليهم السلام.

٤. تبرئة صفحة الأنبياء مما اتهمهم به أقوامهم الكفار.

٥. بيان أن عاقبة الأنبياء والدعاة النصر والتمكين، وأن عاقبة المكذبين الهلاك والعذاب المبين.[1]

وذكر الدقور أنه رغم وجود كل تلك الأهداف العامة إلا أن هناك أهدافاً تفصيلية، أو إن أمكن أن نسميها خاصة فهي كذلك، حيث يمكن الوقوف على كل قصة بشكل منفصل في سياقها الخاص الذي جاءت فيه لتحديد هدف خاص بها، ومنه أن قصة آدم - عليه السلام - يتمثل فيها تصارع قوى الخير والشر في الإنسان مدى الحياة، وقصة إسماعيل مع أبيه إبراهيم - عليهما السلام - تمثل تسليم الأمر لله والرضا بما يقسم، والإيمان والقناعة أن ما عنده خير، وقصة موسى مع العبد الصالح تمثل أهمية التواضع والصبر على التعلم ومعرفة حكمة الأشياء... إلى غير ذلك مما يمكن العنونة

(١) انظر المرجع السابق، ص٣٢-٥٧.

لكل قصة من قصص القرآن الكريم به.[1]

من هنا نرى أن الغرض الديني هو الغرض الأساسي والوحيد في القصص القرآني، وعنه تتفرع بعض الفوائد والأهداف التعليمية والأخلاقية.

(١) انظر الدقور، سليمان، القصص القرآني، ص٥٧.

المفارقة الدرامية في القصص القرآني

قصة آدم عليه السلام

نتوقف هنا عند المشهد المتعلق بإغواء إبليس لآدم عليه السلام في الجنة وإخراجه منها، وقد تكررت هذه الحلقة من قصة آدم في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه.

قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٥ - ٣٦] وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى آدم أن يسكن الجنة مع زوجه ويحذره من الاقتراب من الشجرة، وقد اختلف العلماء في حقيقتها هل هي حقيقية أم مجازية "وقد قيل إن الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها هي شجرة المعرفة، لكن كيف يجازى آدم بالسجود له بسبب قدرته على اكتساب المعرفة؟ وكيف يجازى بطرده من الجنة إذا ما حاول اكتساب المعرفة بلا حدود؟ هذه حقاً إشكالية حياة الإنسان منذ كان، ففي نهمه للمعرفة سعادته وشقاؤه، وفيه حياته وموته" [(١)].

وترى الباحثة أن الشجرة المذكورة في الآيات الكريمة كانت شجرة

---

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصيّة (أدبيّة) في القصة القرآنيّة، ط١، عمان – الأردن، ١٩٩٢م، ص٦٠.

حقيقية لما دل عليه السياق من قرائن ملازمة لها من مثل (ذاقا) و(كلا من حيث شئتما) فالأكل والتذوق لا يكونا إلا لما يؤكل حقيقة وليس شيئاً مجازياً كما رأى البعض، ومهما يكن فقد صدر أمر التحريم من الاقتراب أو الأكل من ثمارها، ولعل أمر التحريم في حد ذاته جعل الاقتراب من الشجرة والأكل من ثمارها أمراً مستحباً، وكأن الإنسان بفطرته يميل إلى كل ما هو ممنوع، فقد أثار فضوله أمر التحريم هذا ولم يجرؤ على المخالفة، لكن إبليس حرضهما على مخالفة أمر الله تعالى، " وإن هذا النهي الذي تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين؛ موقع الخوف من الجهة التي ألقت إليه بهذا النهي والحذر من أن يخالف ما نهي عنه، والرغبة الصارخة في مداناة هذه الشجرة والتعرف عليها وعلى ما يكمن فيها."(1)

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف: ١٩ – ٢٢].

---

(١) الخطيب، عبد الكريم، قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م، ص٣٨.

وفي مشهد إغواء إبليس لآدم وزوجه يبدو واضحاً أن صاحب المفارقة إبليس الذي اتسم بالغرور والكيد ويقابله الضحية آدم عليه السلام الذي اتسم بالغفلة والنسيان، فقد استعان إبليس للإيقاع بضحيته آدم عليه السلام بإثارة العقل والنفس معاً مستنداً في ذلك إلى الحجج العقلية والرغبات الفطرية. وقد جمع بين الأمرين؛ النفس والعقل في الخلود وحب السيطرة والتملك، ولعله اختار ما يلائم فطرة الإنسان من حبه للحياة والملك ولم تكن طريقته في النصح مباشرة؛ فقد تظاهر بالنصح وأخفى مشاعر الحقد تجاههما وأقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه من الناصحين ليزيد من قوة حجته، وبهذا يكون آدم قد وقع ضحية إبليس وحيلته، والذي أوقعه في ذلك جهله بنوايا إبليس الخفية وغفلته بما يدور حوله ورغباته الدفينة التي حركها إبليس، فكانت نتيجة ذلك أن غضب الله عليهما وأخرجهما من الجنة هو وزوجه.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١١٥ – ١٢٠] وتتبدى المفارقة هنا في أن خطاب الله تعالى لآدم كان واضحاً وصريحاً بعدم اتباع غواية إبليس، لأنه سيكون السبب في خروجه وزوجه من الجنة، إلا أن غريزة آدم الإنسانية تدعوه إلى الرغبة فيما هو ممنوع

وذلك ما جعل من وساوس الشيطان منفذاً إلى نفسه.

ومن الجدير بالذكر أن إبليس بإغوائه لآدم تجاوز الحاجات الأساسية لأي مخلوق من مأكل وملبس ومشرب وظل، فهذه الأمور الأربعة كما وردت في الآية الكريمة كانت تكفي لإبقاء آدم عليه السلام في الجنة، لكن إبليس أراد له الشقاء فأغراه بالخلود والتملك. وهذه الأشياء تفوق الحاجات الأساسية "وناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح" (1) ولعل وسوسة إبليس لآدم تكررت مرات عدة وفي كل مرة كانت تأخذ أسلوباً وشكلاً جديدين.

وقد تدرج إبليس في وسوسته لآدم وزوجه، ففي سؤاله لهما أثار في نفسيهما الفضول بمعرفة السبب الذي من أجله منعا الأكل من هذه الشجرة في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وفي توظيفه حرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير نلمح تشكيكاً من قبل الموسوس والهدف منه زرع بذور الشك والفضول عند الضحية. وأما في سورة طه فكانت وسوسته فيها من التأكيد والثقة في توظيفه حرف العطف (و) الذي يفيد مطلق المشاركة والجمع، بعدما تأكد من ميلهما للأكل من الشجرة في قوله تعالى: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. " عندما كان الحديث لهما معا وعِدا بالارتقاء إلى مرتبة الملائكة أو الخلود، أما عندما كان الحديث يخص آدم فقد وعد بالخلود والملك،

---

(١) شلبي، محمود، حياة آدم، ط١، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٦٤م، ص٢٥.

وحرف العطف (أو) يفيد التخيير وفيه مذاق التردد وعدم الثقة من قبل الموسوس لأنه يوسوس لاثنين، فلم يستفرد بأحدهما أو يوسوس لحواء لتتشبه بالملائكة ولآدم بالملك الذي لا يبلى، وهذا يتناسب مع تأنيث العرب للملائكة ومع ربط المرأة الجميلة بصورة الملاك. أما عندما استفرد بآدم وحده نلاحظ الوعود الواثقة بأنه يدله على شجرة الخلد بالإضافة للملك الذي لا يبلى"[1].

وبهذا تكون المفارقة الأولى التي حصلت للإنسان بين الرغبة والمنع وبين الموت والخلد، وبين الحد الفاصل من هذه المتناقضات يعيش الإنسان، فالإنسان لديه من الرغبات ما يلزمه توجيهها وكبح جماحها ولا يتحقق ذلك إلا بالاستناد إلى العقل.

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ٦٥.

المفارقة في قصة إبراهيم عليه السلام

تطالعنا حلقة من حلقات قصة إبراهيم -عليه السلام - المتعلقة بدعوته قومه ونصحه إياهم في سورة الأنبياء وسورة الصافات؛ إذ دعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده؛ فهو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهن بدلاً من عبادة التماثيل التي نحتوها بأيديهم، فهي لا تضرهم ولا تنفعهم.

ونرى ذلك في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢ – ٥٦].

وتظهر المفارقة هنا جلية، فالقوم على علم تام أن أصنامهم التي نحتوها بأيديهم لا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً، إلا أن عنادهم واستكبارهم يمنعهم من الإيمان بالله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥ – ٨٧].

وبعد محاولات إبراهيم - عليه السلام - الكثيرة في هداية قومه لجأ إلى الكيد ليقيم الحجة عليهم بأن أصنامهم التي يعبدونها لا تضرهم ولا تنفعهم بدليل واقعي ملموس، فخاطبهم بعقليتهم ومنطقهم وفهمهم للأشياء وأسرّ هذا الأمر في نفسه وقام بتنفيذ ما عزم عليه بعد انصرافهم فحطّم أصنامهم

كلها إلا كبيرهم، قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧ – ٥٨] فإذا كانوا مؤمنين بهذه التماثيل وأنها تضر وتنفع فمن الطبيعي أن يتبادر إلى أذهانهم أن كبير الآلهة قد حطّمها أو أنه يعرف من قام بفعل ذلك، ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ – ٦٣] فيتضح هنا أن إبراهيم عليه السلام صاحب المفارقة يسعى إلى إيصال رسالة المفارقة إلى الضحية بطريقة غير مباشرة، ففي جوابه على سؤالهم﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] تهكم وسخرية من تفكيرهم، فكأنه يقول لهم: كيف تعدون ما لا ينطق ولا يسمع ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١ – ٩٣]، وفي تركه لكبير الأصنام دون تحطيم ذكاء وفطنة، ولا يخفى على المتلقي نبرة السخرية والتهكم التي يشيع بها جو الخطاب، واللافت للنظر أن قومه أقروا واعترفوا في أنفسهم بصدق إبراهيم وصدق ما جاء به، ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤] إلا أن استكبارهم ووقوعهم ضحية للتقليد جعلهم يصرون على عبادتهم ويطالبون بإيقاع العقوبة بإبراهيم وهي الحرق حتى الموت.

ولقد اختاروا وسيلة الإحراق ليطمسوا أي أثر للدين الجديد، وانظر إلى الكلمات (حرقوه) و(ابنوا بنياناً فألقوه) هذه الألفاظ كلها تدل على مدى الحقد

والخوف الذي ملأ قلوبهم، ولكن الله سبحانه وتعالى ينجي رسله ويرد كيد الظالمين، فالنار التي صفتها الإحراق تتحول بمشيئة الله وقدرته إلى برد وسلام على إبراهيم، ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩] ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ – ٩٨].

"الحقيقة هي إرادة الله المطلقة التي لا تحدها حدود والمظهر هو اغترار فئة من الفئات بقوتها وجبروتها، فتكون النتيجة الانحدار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] تولدت المفارقة اللفظية هنا من خلال الإبراز؛ إبراز عدم فاعلية النار على الإحراق. لقد افتقدت النار خاصية فعل الإحراق وتحولت إلى بُعد مناقض لحقيقتها وهو البرد والسلام وعدم التمكن من إبراهيم، فكان المتلقي يتوقع شيئاً استناداً إلى دلالات اللفظ وصيغة التركيب وإذا به بصيغة مغايرة في موقفها التناقضي مع الأول (حرقوه) و(برداً وسلاماً) "[1].

فتبدو المفارقة هنا في تجاور اللفظتين (نار وبرداً) فكيف تتحول النار إلى برد من النقيض إلى النقيض في لحظة واحدة من خلال فعل الأمر(كوني).

---

(١) الشهرزوي، يادكارلطيف، جماليات التلقي في السرد القرآني، ط١، دار الزمان، دمشق – سوريا، ٢٠١٠م، ص٢٨٣.

المفارقة في قصة موسى عليه السلام

قصة موسى من أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، وقد توسعت أحداث القصة في حلقات تشكل كل حلقة قصة مستقلة بذاتها، ولعل أكثر حلقات القصة تكرار قصة موسى مع فرعون حيث ذكرت أكثر من عشر مرات، وبعضها ورد عدة مرات مثل عودة موسى بأهله من مدين وتلقيه الرسالة، وقد وردت قصة مولده مرتين في سورة طه والقصص، وفي المقابل ذكرت قصة موسى مع العبد الصالح مرة واحدة في سورة الكهف لم تتكرر بعدها في أي موضع آخر.

وفيما يلي سنعرض لمواطن المفارقة في قصة موسى - عليه السلام - من خلال الأحداث المتمثلة بمولده وهلاك فرعون وموقف السحرة من موسى، وقصته مع العبد الصالح.

مولد موسى وهلاك فرعون

تبدأ أحداث قصة موسى مع فرعون عند ميلاده - عليه السلام - فقد كان هذا الطاغية الجبار يقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، لهذا فقد خشيت عليه أمه من الموت.

فأوحى الله لها أن تضعه في صندوق وتلقيه في اليم لتتولاه العناية الإلهية فيما بعد، وتتعلق به زوجة فرعون، وتطلب من زوجها أن يتخذاه ولداً لهما.

" وقد قص هذا المشهد في سورة طه والقصص ولا تكرار بين المشهدين، ففي القصص رسم للخطة وفي طه كان التنفيذ، وفي القصص كان الحديث عن الخطر وهو متوقع، أما في طه فكان الحديث عن الخطر وهو واقع ومثاله ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ المفيدة للهدوء و(فاقذفيه في اليم) حيث الخطر ماحق ومحدق."(١)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

فالتعارض واضح بين فعل الشرط وجوابه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و﴿فَأَلْقِيهِ﴾ فإرضاع الطفل دلالة على الحب والعطف والحنوّ اللامتناهي من الأم، فهي غريزة فطرية أودعها الله سبحانه وتعالى في قلبها، وهذا أمر طبيعي تقوم به أي أم دون أن يُطلب منها ذلك، لكن كيف يتوافق هذا مع إلقائه في اليم إذا شعرت بالخوف عليه، والأصل في مثل هذا الموقف أن تزيد من طرق حمايته وأساليبها لا أن تلقيه في اليم، ويرفع هذا التعارض الظاهري بعد قوله تعالى ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ وقد قدم الخوف على الحزن، لأن الخوف مرتبط بفعل الإلقاء في اليم لكن الحزن سيكون على فراقه بعد ذلك، فإلقاؤه في اليم محفوظٌ بعناية الله وحمايته له " وكم هي عظيمة الآية الكريمة في توجيه أم موسى والتي

---

(١) نوفل، أحمد، تفسير سورة القصص (دراسة تحليلية موضوعية)، جمعية المحافظة على القرآن الكريم – مركز الحمد القرآني، ص٢٣٥.

مفادها: واجهي الخوف بعدم الخوف." [1]

وقال تعالى في موضع آخر من سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٨ – ٣٩]: ويظهر أن في القذف من الشدة والقوة ما لا يوجد في الإلقاء، حيث إن آية القصص كانت حديثاً مع أم موسى، فالخطاب لأم موسى جدير أن يكون فيه لطف ومؤانسة، لذلك كان من الحكمة التعبير بالإلقاء، لأن ليس فيه من الشدة والقوة ما في القذف، أما ما جاء في سورة طه فإنه كان حديثاً مع موسى بعد أن أكرمه الله بالرسالة وبين له النعم العظيمة التي أنعم بها عليه، ولقد اقتضى السياق أن تذكر هذه النعم في معرض التهويل، فذكرت كلمة القذف بدلاً من الإلقاء وذلك ليوطن نفسه على ما يلقاه من صعاب.[2]

"ولفظة (تابوت) هنا شديدة الإيحاء مهما حاولنا الإعراض عمّا تلبّس بها من موحيات تتعلق بالموت، وكذلك بتابوت بني إسرائيل الشهير! يقال إن التابوت هنا هو مجرد صندوق وضعته أمه فيه حتى يطفو على الماء ويمنع تسرب الماء إليه، لماذا دُعي صندوق وسيلة الإنقاذ تابوتاً والتابوت صندوق

---

(١) نوفل، أحمد، تفسير سورة القصص، ص١٦٧.

(٢) انظر عباس، فضل، القصص القرآني إيحاؤه ونفحاتهُ، دار الفرقان، عمان – الأردن، ١٩٨٧م، ص٤٨٧.

الموت؟ فكأن موسى الوليد قد دُفِن في تابوته في الماء رمز الحياة؛ ليُبعث منها بطلاً منقذاً متفرداً في طفولته الخاصة جداً."(١)

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨] "ويسارع النص الكريم إلى طمأنتنا وهدهدة ثائر نفوسنا، فقد خطر بالبال أن هذا الالتقاط مقدمة الإهلاك، ولكن القرآن طمأن البال إذ قال: (لِيَكُونَ) فالولد سيعيش إذاً حتى يكون مصدر إقلاق لهؤلاء المجرمين."(٢)

وفي الفعلين (يأخذه) و(يلتقطه) تشابه إلى حد كبير مع اختلاف بسيط في الدلالة؛ إذ إن الفعل (التقط) فيه من الدقة والقصدية بخلاف (أخذ) الذي يدل على الإجمال، وهذا يتناسب مع فاعل كل منهما، فالتقطه فاعله (آل فرعون) وفيه نوع من التخصيص أما (يأخذه عدو لي) فجاء الفاعل بصفته المجملة دون تخصيص، وأيًا يكن الأمر فإن وصول المولود إلى آل فرعون يشحن النص بجو من التوتر والخوف ولا سيما مشاعر الأم القلقة على ولدها.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٩ — ١٠] لكن وعد الله لأم موسى

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصيّة أدبيّة في القصة القرآنيّة، ص٤٠.

(٢) نوفل، أحمد، تفسير سورة القصص، ص٢٣٨ .

بإرجاع ولدها لها يقع في النفس موقعاً حسناً، فيزيدنا سكينة واطمئنانا على مصيره، فيلقي الله سبحانه وتعالى محبته في قلب امرأة فرعون حينما تراه، فتسارع بإقناع زوجها أن تتخذه ولداً. وتكمن المفارقة هنا أن فرعون يلبي رغبتها على الرغم من إصداره أمر قتل المواليد الجدد، ليكون ما أراده الله في أن يترعرع موسى الطفل في بيت عدوهما.

لقد كان لأخت موسى -عليه السلام- دور مهم؛ إذ استطاعت بفطنتها وذكائها أن تعيد أخاها إلى حضن أمه، فصاحب المفارقة هنا كما هو واضح الأخت التي احتالت على آل فرعون بعد أن نجى الله موسى من اليم ومن القتل.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١١ – ١٣] والحق أن تصرف الأخت كان من الذكاء والمهارة بمكان؛ إذ إنها لم تشعرهم بوجودها، فكأنَّ تدخُّلها كان لتقديم العون والمساعدة لهم، لذلك وجدت نصيحتها لهم آذاناً صاغية، فهي لم تحدد اسم المرضعة، وإنما جعلت الأمر عاماً في قولها (أهل بيت)، والضحية هنا بأمسّ الحاجة لمن يقدم لهم النصح والإرشاد، فالطفل يبكي من فرط جوعه، وبالمقابل لم يقبل الرضاعة من المرضعات اللواتي عرض عليهن،

فيذهب موسى إلى أمه لترضعه وتقر عينها كما وعدها الله تعالى، مع بقائه تحت رعاية آل فرعون.

وتكمن هنا مفارقة أخرى حيث إنهم كانوا في بادئ الأمر حريصين على قتله، ثم أصبحوا فيما بعد حريصين على حياته.

" ولعل في هذه الطفولة المزدوجة، التي يحمل فيها موسى هوان المولد وذلّه من بني إسرائيل وعز التنشئة وكبريائها من قصر فرعون، لعل في تلك الطفولة إرهاصاً بالمهمة المزدوجة، التي ستوكل إليه مستقبلاً، وإعداداً وتهيئة للظروف، بحيث يتمكن من أداء مهمته على أكمل وجه، فموسى الوليد يحمل معه من بني إسرائيل عبء الأصل وهمه وفي نشأته يحتقب من قصر فرعون سيماء القيادة ومنزلة في قلب فرعون لا تنمحي."(١)

إن المتوقع في مثل هذه القصة أن يغرق الطفل الرضيع الموضوع في صندوق، لكن الله سبحانه وتعالى نجاه وحماه من آل فرعون إلى أن بلغ أشده، وأرسله مع أخيه هارون ليبلّغا رسالات الله، وفي المقابل من كان يتوقع هذه النهاية لفرعون، الذي تجبر وطغى وادّعى الألوهية؟ فقد أغرقه الله ليكون عبرةً لمن بعده.

---

(١) العلاوي، نزيه، الشخصيات القرآنية، ط١، دار صفاء، عمان – الأردن، ٢٠٠٦م، ص١٠٥.

فنجد أنّ اليم ذاته الذي شكّل ممر النجاة لموسى، هو ذاته الذي شكل نقطة النهاية لفرعون ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

"وفرعون الطاغية الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل، يلاقي الموت على يد موسى، فيقوده إليه غرقاً، وهو الذي حملته الأقدار إليه رضيعاً، فصرف الله عنه شرّه وبأسه."(١)

تجسدت المفارقة في هذا السياق بثلاثة مستويات، الأول هو مفارقة الإلقاء، حيث يتحول البحر إلى مكان النجاة والأمان لموسى(الطفل الرضيع)، والثاني هومستوى فعل الالتقاط كقدر إلهي محتوم لفرعون وموسى، حتى يتمكن المتلقي من استخلاص العبرة من حركة التاريخ، ومن القدر الإلهي الحكيم، حيث يقوم فرعون الذي قام بذبح أطفال بني إسرائيل بالتقاط الطفل من أجل ألا يظهر إلى الوجود، وأكثر من ذلك، أن يقوم فرعون نفسه بتنشئته ورعايته في قصره وتحت إشرافه المباشر. والثالث هو مستوى النية، كما وجدناه في نية تبني موسى ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩] إلا أن انقلاب الولد - في نظر فرعون -لا يظهر إلا في نهايات القصة، عندما يعود موسى رسولاً من رب

(١) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص٤٤٠.

العالمين، فيواجه فرعون ويطالبه بامتثال أوامر الله [1].

"إن ظاهرة التفرعن تقوم على القوة، وعلى زرع الخوف من هذه القوة في نفوس المستضعفين، فالعلاج يبدأ من حيث تخلقت المشكلة" [2].

لذلك فقد كان توجيه الله سبحانه وتعالى لأم موسى في بداية الأمر بمواجهة الخوف لا الهرب منه بحثاً عن الأمان، وكما أن التوجيهات القرآنية لموسى -عليه السلام- كانت تحمل في مضمونها النهي عن الخوف، ولاسيما عند مواجهة فرعون.

موسى عليه السلام والسحرة

وردت قصة موسى عليه السلام مع السحرة في أكثر من موضع من القرآن الكريم، فبعد أن تلقّى رسول الله موسى الرسالة من الله وأيّده بمعجزتين؛ العصا واليد البيضاء، توجه إلى فرعون ليأخذ بني إسرائيل معه واستعان بتلك المعجزتين ليؤكد صحة ما جاء به، وسرعان ما اعتبره فرعون سحراً ومكراً، وطلب من أعوانه حشد أمهر السحرة في أرض مصر.

وتظهر لنا المفارقة في مشهد السحرة الذين جاؤوا لنصرة فرعون، ليتحولوا بعد ذلك إلى نصرة موسى عليه السلام ودينه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ

(١) انظر الشهرزوي، يادكا، جماليات التلقي في القرآن الكريم، ص٢٨٠.

(٢) نوفل، أحمد، تفسير سورة القصص، ص١٨٦.

لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤١ – ٤٨].

وقد عرض سليمان الطراونة لموضوع إلقاء موسى العصا والمقولات المتعددة التي رافقت إلقاءها؛ فموسى اضطر لأن يقول الصور الثلاث من أوامر الإلقاء تنبيهاً لهم؛ في سورتي الأعراف والشعراء،ابتدأ معهم بـ" ألقوا"، ولما وجد ترددهم وميلهم لأن يبدأ هو قال في سورة طه: " بل ألقوا " ولما نفد صبره قال لهم: " ألقوا ما أنتم ملقون " وذلك في سورة يونس.(١)

موسى والعبد الصالح

تظهر لنا قصة موسى مع العبد الصالح أخلاق العالم والمتعلم، فموسى - عليه السلام - احتجب عنه العلم الغيبي بخلاف معلمه الذي اختصه الله عز وجل به، فيقع فيما يسمى الغفلة المطمئنة؛ لأنه يرى الأمور على ظاهرها، لكن العبد الصالح يكشف له ما خفي من حسن تدبير رب العالمين.

وقبل أن نشرع في تفصيل الحوادث نقف مع بداية القصة التي وردت مرة واحدة على امتداد القرآن الكريم في سورة الكهف. ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا

---

(١) انظر الطراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص٤٦

حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٠ – ٦٤] تبين الآيات الكريمة أن موسى - عليه السلام - كان مصطحباً لفتاه في رحلته، التي كان هدفها البحث عن العبد الصالح ليتلقى منه العلم، ونعرف من سياق الآيات الكريمة أن الإشارة التي تنبئ عن مكان وجود هذا العبد، هي في المكان ذاته الذي سيفقد فيه الحوت.

ولعل النسيان دليل على بشرية الإنسان، وأنه مهما أوتي من العلم سيظل محتاجاً إليه، وكما هو واضح في الآيات الكريمة، فإن العبد الصالح أوتي من العلم والرحمة ما لم يؤتَ موسى، لذلك فقد طلب منه موسى -عليه السلام- أن يعلّمه مما علّمه الله، لكن العبد الصالح يعلم تماماً أن موسى عليه السلام لن يستطيع الصبر، فيشترط عليه حسن الاستماع وعدم الاعتراض والسؤال حتى يخبره هو بتأويل ما لم يستطع فهمه وإدراكه، فيوافق موسى - عليه السلام - وتبدأ الرحلة.

الحادثة الأولى: ركوب السفينة

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] تشير الآية الكريمة إلى أن العلم الذي سيعلّمه العبد الصالح لموسى ليس علما نظرياً، وإنما علم يستقيه من مواقف الحياة، فالفعل

(فانطلقا) يصور حب موسى وشغفه في طلب العلم، ونلمس فيه من معاني السرعة وعدم التردد الرغبة بالتعلم، ويبدأ الدرس الأول بركوبهما لسفينة أصحابها كانوا مساكين، وتبدو المفارقة هنافي تصرف العبد الصالح، فعندما استقرا في جوفها قام العبد الصالح بخرقها، فسارع موسى بالاعتراض على فعله، ونجد تعليل العبد الصالح لهذا الموقف في آية لاحقة في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩]، وهنا تنكشف غفلة موسى وعدم معرفته بما خفي عنه من ظواهر الأشياء فيقع فريسة للتسرع.

الحادثة الثانية: قتل الغلام

وتظهر لنا مفارقة أخرى في الحادثة الثانية المتمثلة بقتل العبد الصالح لغلام لم يظهر لنا ما يوجب قتله ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف: ٧٤] كانت ردة فعل موسى – عليه السلام - كما كانت في المرة السابقة وربما أشد، فالقتل أمر عظيم ولا يجوز التهاون فيه فكيف إذا صدر من عبد صالح عرف عنه العلم. ونرى أنه يسوّغ ما فعله فيما بعد بقوله: إن الغلام كان لأبوين صالحين وأراد الله أن يرزقهما خيراً منه، وهذا من تدبير رب العالمين الخفي عن عقول عباده ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨٠ – ٨١].

الحادثة الثالثة: بناء الجدار

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٧٧] وتحكي هذه الحادثة قصة دخولهما قرية وطلبهما الطعام والمأوى، لكن أصحابها لم يعطوهما شيئاً. وتكمن المفارقة هنا في قيام العبد الصالح ببناء جدار في تلك القرية كان على وشك الانهيار، فاغتاظ موسى - عليه السلام - لهذا التصرف ونفد صبره، فقدّم العبد الصالح تفسيراً لما فعله، فهذا الجدار تحته كنز ليتيمين لم يبلغا أشدهما بعد، فقد بني هذا الجدار ليحفظ حقهما حتى يكبرا ويستخرجاه بعد ذلك، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقد كانت هذه الحادثة القول الفصل في انتهاء رحلتهما.

ومن خلال هذه الحوادث الثلاث، يتبين لنا أن الأفعال التي قام بها العبد الصالح في ظاهرها شر من منظورنا البشري، لكنها خير في باطنها، ولهذا فإن موسى عليه السلام بصفته البشرية الذي احتجب عنها العلم الغيبي، وقع ضحية لتسرعه واعتراضه على أفعال العبد الصالح، وكما هو واضح من الآيات الكريمة فإن علم العبد الصالح لم يكن علماً ذاتياً وإنما كان وحياً وإلهاماً من الله سبحانه وتعالى لتنفيذ إرادته.

المفارقة في قصة سليمان - عليه السلام - وملكة سبأ

ونعرض هنا لحلقة من حلقات قصة النبي سليمان -عليه السلام- كما جاءت في سورة النمل المتعلقة،بقصته مع ملكة سبأ، فتبدأ الأحداث عندما تفقّد سليمان الطير وأزعجه غياب الهدهد دون علمه، فتوعده بعذاب شديد، ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢٠ - ٢١] وعندما عاد الهدهد أخبر سليمان عن مملكة تعبد الشمس من دون الله وتحكمهم امرأة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٢ – ٢٤].

وليتبين سليمان صدق ما جاء به الهدهد أرسل إليها كتاباً يأمرها أن تأتي وقومها طائعين مسلمين ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٧ – ٣١] ولننظر هنا إلى حصافة ورجاحة عقل المرأة الملكة التي لا تستأثر برأيها؛ إذ إنها طلبت مشورة حاشيتها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ

إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٢ – ٣٤]

ونرى هنا أنها لم تلجأ إلى القوة والحرب، خوفاً على مملكتها فهي تعلم تمام العلم أن عادة الملوك التي لا تتبدل، أنهم إذا دخلوا بلاداً عاثوا فيها الفساد والخراب، فلجأت إلى المهادنة والاحتيال، وأرسلت إليه الهدايا، لتعلم حقيقة أمره إذا كان ملكاً تغريه الهدايا أم نبياً مرسلاً من عند الله يرفضها " والهدية تلين القلب وتعلن الود وقد تفلح في دفع القتال وهي تجربة فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ووسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو أمر العقيدة الذي لا يصرفه عنه مال ولا عرض من أعراض هذه الأرض "[1]، ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥].

فما كان من سليمان إلا أن رفض هديتها على الفور وأرجعها لها منذراً إياهم بحربٍ يخرجون منها صاغرين أذلاء ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧] وهنا سليمان الحكيم صاحب المفارقة يفكر في تدبير حيلة تجعل ضحيته في موقف الاستهزاء والسخرية، والقصد من هذا كله أن تتبين عظيم قدرة الله، وعلى الفور يطلب من أحد جنوده أن يحضر عرش الملكة ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ

---

(١) الطيبي، عكاشة، قصص القرآن في ظلال القرآن، ط١، دار اليوسف، ١٩٩٨م، ص٢٢٧.

بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٣٨ – ٤٠].

ويطلب منهم التغيير في هذا العرش زيادة في الإيهام﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل: ٤١]: وكان له ما أراد، وحينما جاءت سألها سليمان هل هذا العرش يشبه عرشك قالت له (كأنه هو) وفي إجابتها نوع من الفطنة والذكاء، فهي لم تنفِ ذلك ولم تثبته، ويدل أيضاً على الأناة والتريث، ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

إن إحضار عرش الملكة لم يكن أمراً اعتباطياً؛ فقد لفت انتباه الهدهد عظم شأنه وفخامة صنعه، كأنه لم ير مثله قط، فأوقع هذا الأمر في نفس سليمان الذي أراد أن يرى هذا العرش، وليبرهن على أن الملك الدنيوي لا يغني عن الله شيئاً، فبالرغم من غنى الملكة الفاحش وسلطانها الكثير لم تتعرف على عرشها بعد التغيير الطفيف الذي طرأ عليه.

ويعود ذلك لسببين: بعد المسافة بين مملكتها ومملكة سليمان، والتغيير الطفيف الذي أمر سليمان به في قوله: (نكّروا لها عرشها)، فقد وصل صاحب المفارقة هنا إلى غايته؛ أن يوقع السخرية والاستهزاء بالضحية، وكأنه بذلك يقول لها بالرغم من رجاحة عقلك وحكمتك إلا أنك لم تتعرفي على شيء خاص بك وهو العرش.

لكن الضحية هنا لم تصل لها رسالة المفارقة التي أراد سليمان إيصالها لها، فأمر ببناء صرحٍ ممرد من القوارير، وجعل من تحته الماء وطلب منها أن تدخله، فدخلته كاشفة عن ساقيها لأنها ظنته ماءً، وهنا يكشف لها سليمان عن السر، أنه صرحٌ مصنوعٌ من الزجاج، فتعترف الملكة بظلمها لنفسها وتعلن إسلامها، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وبالرغم من ذكاء ملكة سبأ وحُسن تصرّفها الذي جنبها الوقوع في حرب لا تحمد عقباها، إلا أن عدم إسلامها أوقعها ضحية للمفارقة؛ إذ كانت تجهل حقيقة العرش والصرح الممرد، واستطاع سليمان بذكائه وحكمته أن يهديها إلى سبيل الرشاد بأسلوب غير مباشر.

المفارقة في قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا
طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا
مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ١٧ – ٣٣].

هذه قصة إخوة اتّفقوا فيما بينهم أن يقطفوا ثمار حديقتهم في الصباح الباكر دون أن يعطوا المساكين والفقراء منها، فيعودون لرشدهم بعد أن تبين لهم أنهم قد ظلموا أنفسهم، وتظهر شدة المفارقة عندما يظنون أن الجنة المحترقة ليست جنتهم لكن عندما يتيقنون أنها جنتهم ذاتها التي أرادوا حرمان الفقراء والمساكين من ثمارها، يتأكدون أنهم هم المحرومون، وأن الجنة ليست ملكاً لهم كما ظنوا وإنما هي لله سبحانه وتعالى وأن للفقراء والمساكين حقاً كحقهم فيها، وبهذا تكون رسالة المفارقة قد وصلت لهم، فيتوبون ويرجعون إلى طريق الحق والصواب.

الفصل الثاني

المفارقة في الحوار القصصي القرآني

مفهوم الحوار

ورد في لسان العرب تحت مادة (حور) الحَوْرُ الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والحَوْر النقصان بعد الزيادة؛ لأَنه رجوع من حال إلى حال، وهم يَتَحاوَرُون؛ أَي يتراجعون الكلام. والمُحاوَرَة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره، وكلَّمته فما رَجَعَ إِلَيَّ حَوَاراً وحِواراً ومُحاوَرَةً وحَوِيراً ومَحُورَة، بضم الحاء بوزن مَشُورَة؛ أَي جواباً وأَحارَ عليه جوابه: ردَّه.

وأَحَرْتُ له جواباً،وما أَحارَ بكلمة، والاسم من المُحاوَرَةِ الحَوِيرُ، تقول: سمعت حَوِيرَهما وحِوَارَهما، والمُحاوَرَة: المجاوبة، والتَّحاوُرُ: التجاوب وتقول: كلَّمته فما أَحار إِلَيَّ جواباً وما رجع إِلَيَّ حوِيراً ولا حَوِيرَةً ولا مَحُورَةً ولا حِوَاراً أَي ما ردَّ جواباً.والمَحُورَةُ من المُحاوَرَةِ مصدر كالمَشُورَةِ من المُشاوَرَة.(١)

وعلى هذا نرى أن مفهوم الحوار يشترط وجود طرفين أو أكثر، ويقوم على التخاطب والتحدث في أمر معين يحتمل الاختلاف، فيعرض كل طرف وجهة نظره في الموضوع ذاته، ولا يستأثر طرف بالحديث دون الآخر.

وفي القرآن الكريم وردت لفظة (حوار) ثلاث مرات، مرتين في سورة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حور).

الكهف ومرة في سورة المجادلة، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤] ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧].

الحوار القرآني

يتبيّن القارئ للقرآن الكريم شيوع الحوار بشكل لافت، فهو كلام الله الذي يخاطب به عقول عباده وأفئدتهم، " فالقرآن كتاب الحوار؛ إنه يجعله سبيلا لحلّ قضاياه ابتداءً بباب الحوار الأول الذي فتحه الله أمام الملائكة والشيطان لمّا أراد خلق آدم مروراً بحوارات رسله مع أقوامهم وانتهاءً بحواره مع خلقه يوم القيامة "(١).

ويُقصد بالحوار القرآني " كلّ نداء، أو خطاب، أو سؤال يوجّهه القرآن، أو يحييه موجَّهاً إلى منادى أو مخاطب أو مخاطبين حول أمر مهم، أو يوجهه النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أصحابه أو المسلمين»...(٢).

وقد نقل القرآن الكريم جملة من الحوارات على ألسنة الإنس والجنّ والطير والجماد بلغة القرآن وبأسلوبه البلاغيّ المعجز. وعلى هذا فإن الحوار القرآني يتكون من " جملة منطوقات، تبادلها طرفان أو أكثر بلغة القرآن ذاتها، ولكن بتشكل خاص يتناسب مع الطرف المحاور، فالواقعية في لغة الحوار

---

(١) نزال، فوز، لغة الحوار في القرآن الكريم، ط١، الجوهرة، عمان – الأردن، ٢٠٠٣م، ص ٢٦.

(٢) النحلاوي، عبد الرحمن، التربية بالحوار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١٤.

القرآني واقعية نفسية لا لغوية "[1].

والحوار في القرآن الكريم نوعان: حوار قصصي وحوار غير قصصي؛ "الحوار القصصي هو الذي حكاهُ الله على لسان أطراف شكّل تفاعلها أحداثاً مضت وصراعات تأزمت يندرج جلّها بين عناصر الخير والشر، وذلك في إطار الرسالات السماوية وما يدور في فلكها. أما الحوار غير القصصي فيشمل المقولات التي لقنها الله لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ليقوم بتبليغها إلى أتباعه أو إلى خصومه من المشركين وأهل الكتاب، كما يشمل المقولات التي حكاها الله على ألسنة البشر وغير البشر يوم القيامة."[2]

وترى الباحثة أن الحوار القصصي يقصد به كل حوار شكّل في مجمله قصة، وهذا يعيدنا إلى مفهوم القصص في القرآن الكريم الذي يقصد به كل الأحداث التي كانت قبل البعثة المحمدية من حوارات الأنبياء مع أقوامهم وحوارات قصصية أخرى مثل قصة ابني آدم وأصحاب الجنة. وستهتم هذه الدراسة بالتوقف عند الحوار القصصي في القرآن ولا سيما الحوار الذي شكّلت فيه المفارقة عنصراً أساسياً فاعلاً. مغفلة الحوارات غير القصصية التي ارتبطت بوقت نزول القرآن من ذكر الغزوات، وما تنبأ القرآن به ومن ذلك مشاهد يوم القيامة وما اشتملت عليه من حوارات أهل الجنة والنار والأعراف، لأنه لا يمكن إدراجها

(١) نزال، فوز، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص ٢٦.

(٢) نزال، فوز، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص٢٨.

ضمن مفهوم القصص الذي يعني قصّ أحداث حصلت في الماضي البعيد وأخبر بها الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ليثبّت بها فؤاده.

موضوعات الحوار القصصي

والقارئ للقرآن الكريم يلفت انتباهه كثرة الحوارات المبثوثة في آياته وتنوعها في الموضوع والأسلوب والطول والقصر، أضف إلى ذلك ماتؤديه هذه الحوارات في القصص من دور في نمو الأحداث وتأزمها، كما أنها تكشف عن باطن الشخصية وما تعانيه من نوازع الخير والشر، " وللمتأمل في الحركة الحوارية في القصص القرآني أن يجد تقلبها بين الإبطاء والإسراع، وبين اللين والشدة،والقرآن يركّز على العناصر الحيّة من الموقف الحواري، وكذلك اللقطات البارزة المعبرة: فنجد فيه أمثلة كثيرة للحوار المركّز المضغوط الذي يحمل عناصر قصة كاملة مثل قصة مريم في سورة مريم "[١].

لقد تنوعت موضوعات الحوار القصصي فمنها الدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والنفسية. ويمثل حوار الأنبياء مع أقوامهم الجانب الديني، ومثل ذلك حوار نوح عليه السلام مع قومه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ١ – ٣] ونلحظ الجانب الاقتصادي متمثلاً في حوار شعيب مع قومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟

---

(١) طراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٧٠ .

ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكشف الحوار القصصي عن نفسية المتحاورين وذلك بوصف نوازع الشر، مثل حوار ابني آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]، ويمثل حوار سليمان مع ملكة سبأ حواراً سياسياً: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٥ – ٣٦] وقد شكّل حوار لوط مع قومه الجانب الاجتماعي المتمثل في محاولة إقناعهم ترك الفاحشة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] أما حوار يوسف عليه السلام مع السجينين، فتمثل في تعبير الرؤى: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١].

أطراف الحوار القصصي

تعددت أطراف الحوار بتعدد قائليه وشملت حوارات القصص القرآني حوار الخالق مع الملائكة، وحواره مع إبليس وبعض الأنبياء، وحوار الأنبياء مع أقوامهم أو مع الطير والجن كما في قصة سليمان، وحوارات النساء، وحوارات بشر خارج إطار النبوة مثل أصحاب الجنة.

وورد حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة لإعلامهم بأمر خلق آدم. وإيراد مثل هذا الحوار من شأنه أن يعلّم البشر ضرورة التخاطب والتحاور فيما بينهم.كما ورد أيضاً حوار الله سبحانه وتعالى مع إبليس في مواضع كثيرة من القرآن الكريم " لما رفض الامتثال لأمره بالسجود لآدم سامحاً له بالتصريح بأهوائه ومشاعره بالرغم من علمه المحيط بها ومعرفته المسبقة بنهاية هذا الحوار، وكأنه عز وجل يعلّم الناس أن يلجؤوا إلى الحوار قبل لجوئهم إلى القوة مهما ملكوا من وسائل القوة ومهما كان خلاف مخالفيهم "[1] ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٣ – ١٦].

كما نجد حوار الله مع بعض أنبيائه، مثل حواره مع نوح: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ

---

(١) نزال، فوز، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص٣٤.

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٨].

وحواره مع إبراهيم -عليه السلام-في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد ظهرت حوارات الملائكة مع الرسل، في حوارهم مع لوط﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] وزكريا﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩] وإبراهيم ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٥].

ومن أكثر الحوارات القصصية في القرآن الكريم شيوعاً حوار الرسل مع أقوامهم، وشكّلت الدعوة إلى الله محورها الأساسي. ونستطيع أن نجمل هذه الحوارات في ما يلي:

١. الحوار بين نوح – عليه السلام – وقومه، وقد ورد في ست سور:

الأعراف، الشعراء، يونس، هود، نوح، المؤمنون.

٢. الحوار بين هود - عليه السلام - وقومه: وورد هذا الحوار في خمس سور: الأعراف، الشعراء، هود، الأحقاف، المؤمنون.

٣. الحوار بين صالح - عليه السلام - وقومه، وجاء في خمس سور: القمر، الأعراف، النمل، هود، الشعراء.

٤. الحوار بين إبراهيم - عليه السلام - وأبيه وقومه: وقد جاء في ست سور: مريم، الأنعام، الصافات، الأنبياء، الشعراء، العنكبوت.

٥. الحوار بين لوط - عليه السلام - وقومه، وجاء في ست سور هي: الأعراف، النمل، هود، الحجر، الشعراء، العنكبوت.

٦. الحوار بين شعيب - عليه السلام -وقومه، وذلك في أربعة مواضع: الأعراف، الشعراء وهود، والعنكبوت.

٧. حوار موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه ومع بني إسرائيل. وحوار موسى مع فرعون جاء موزعاً في عشر سور هي: الأعراف، طه، الشعراء، القصص، الإسراء، يونس، غافر، الزخرف، الدخان، النازعات.

٨. حوار موسى مع بني إسرائيل جاء في السور التالية: الأعراف، طه، الشعراء، القصص، يونس، إبراهيم، البقرة، الصف، المائدة.

٩. الحوار بين عيسى - عليه السلام - وقومه وورد في خمس سور هي:

مريم، الزخرف، آل عمران، الصف، المائدة.

وقد وردت حوارات بين نماذج بشرية خارج إطار النبوة مثل حوار ابني آدم حوار أصحاب الجنة، وحوار الشاب الكافر ووالديه المؤمنين، ووردت حوارات النساء كحوار امرأة فرعون ومريم مع الملائكة وحوار زوج إبراهيم وحوار ابنتي شعيب وحوار امرأة العزيز وحوار ملكة سبأ.

أنواع الحوار القصصي

ولما كانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل القرآن الكريم المتعددة في هداية الناس، فقد برز نوعان من القصص القرآني، يقوم الأول على الحوادث ويصفها وصفا تقريرياً حكائياً، وهذا ما عرضنا له في الفصل الأول. أما النوع الثاني فيقوم على الحوار بشكل أساسي، وبذلك تكون القصة قصة حوارية تعتمد أساساً على التخاطب بين طرفين أو أكثر.

وتكمن قيمة القصة الحوارية " في محاولتها تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، فلا يترك جانب خفي فيها لأن كلّ طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها."[١]

والمتأمل للحوار القصصي في القرآن الكريم، يجده متمثلاً بنوعيه الداخلي والخارجي. والحوار الداخلي لم يكثر وجوده في القصص القرآني مقارنة بالحوار الخارجي، وهذا يتناسب مع وظيفة كلٍّ منهما؛ فالحوار الخارجي في القصة، يساعد على تنمية الأحداث بعكس الحوار الداخلي، الذي يكشف عن مكنونات النفس البشرية وما تعانيه من صراعات داخلية.

" ومما يتميز به الحوار في القصة القرآنية تلك الذاتية التي يحتفظ بها

---

(١) فضل الله، محمد، الحوار في القرآن، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢١٦.

الحوار لشخصيات المتحاورين والمتجادلين في القصة، فالحوار عن طريق كلماته وجمله يحكي مقولات المتحاورين والمتجادلين والمنحرفين والضالين "[1].

وسأقف هنا عند الحوار القصصي بنوعيه، كاشفةً عن جماليات المفارقة فيه:

الحوار الداخلي

يطالعنا حوار داخلي في قصة يوسف -عليه السلام- في آية ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧٧] ويظهر من هذا الحوار الداخلي أنه يخالف تمام المخالفة ما أراد يوسف - عليه السلام - إظهاره لإخوته، فهو يعلم حقيقة شخصياتهم وما فعلوه في السابق، لكنّه يتظاهر بعدم معرفة حقيقتهم ولاسيما أنه يدبّر لهم مكيدة، فعليه أن يكون حذراً كي لا يكشف أمره، وأمام هذا الاتهام الكبير الذي يواجه به من قِبَل إخوته الذين يجهلون حقيقته، لا يجد يوسف - عليه السلام - بُدّاً من مخاطبة نفسه والتهوين عليها، ليتمكن بعد ذلك من إتمام مكيدته.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الحوار الداخلي بقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا

---

(١) خالد، عبد المرضي زكريا، الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة – مصر، ١٩٩٧م، ص ٤٥.

﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ إذ يستحيل على يوسف مكاشفة إخوته بحقيقته وحقيقتهم.

وفي قصة إبراهيم - عليه السلام - يظهر حوار داخلي آخر﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] ومع أن القرآن لم يصرّح أن هذا الكلام كان حواراً داخلياً، إلا أننا نفهم من السياق القرآني أنه كذلك، ولا يخفى على القارئ نبرة الحزم والتوكيد التي تلف العبارة من أولها إلى آخرها، فبدأت بلام القسم تليه نون التوكيد الثقيلة في الفعل(لأكيدنّ) فلو أنه أطلعهم على خفايا صدره لما جرى الأمر على ما أراد ودبّر.

وفي الموضع ذاته يكشف القرآن الكريم حواراً داخلياً آخر﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤] فبالرغم من إقرارهم ويقينهم القلبي أن عبادتهم للأصنام لا تنفعهم ولا تضرّهم إلا أنهم حاولوا إخفاء ذلك، ليأتي القرآن كاشفاً عن مكنونات نفوسهم. ويصور هذا الحوار الداخلي مفارقة كبرى بين الفطرة والعناد والاستكبار.

وفي قصة مريم نلحظ حواراً داخلياً آخر ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣] ولعل المفارقة هنا تكمن في تمني مريم العذراء الموت مع إيمانها وتسليمها بقضاء الله وقدره، لكن إذا عدنا إلى أحداث القصة وتمثلنا جوّها النفسي نرى أن الموقف لم يكن يسيراً عليها ولاسيّما في لحظات المخاض التي تعاني فيها آلاماً جسدية وتوتراً وقلقاً نفسياً لما ستؤول إليه الأحداث بعد ذلك.

الحوار الخارجي

المفارقة في حوار الله مع الملائكة

يطالعنا حوار الله عز وجل مع ملائكته في سورة البقرة، فقد تصدّر القرآن الكريم، ولعل في ذلك حكمة أرادها الله في تعليم البشرية الحوار واللجوء إليه. وبالرغم من تكرار قصة آدم في مواضع كثيرة في القرآن الكريم إلا أن حوار الله سبحانه وتعالى مع ملائكته فيما يتعلق بخلق آدم لم يُذكر إلا مرّة واحدة.

فالله جلّت قدرته يُخبر ملائكته أنه خالق خليفة في الأرض، وفي هذا إبرازٌ لأهمية الحوار؛ فالله سبحانه وتعالى غنيّ عن أخذ المشورة والرأي من مخلوقاته، لكنه بهذا الحوار يُعلّم البشرية ضرورة التحاور والتخاطب فيما بينهم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٣].

من الواضح في السياق القرآني أن الله عز قدره يُخبِر ملائكته بأمر الخلق

هذا لمجرد الإخبار والإعلام فقط، وهذا واضح من الآية الكريمة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ فقد تكونت من جملة خبرية مؤكدة، وفي المقابل نجد جواب الملائكة تملأه الدهشة والاستغراب، فعلمهم المحدود لم يمكّنهم من استيعاب الموضوع، فمن وجهة نظرهم أنهم مخلوقات وظيفتها التسبيح والتقديس، وأنهم لم يقصّروا في واجبهم، واعتقدوا أنّ وجود خلق غيرهم لن يرقى لمستوى عبادتهم وتسبيحهم لله تعالى، فالملائكة كما نعلم مخلوقات من نور اصطفاها الله سبحانه وتعالى لعبادته وتسبيحه وتقديسه.

والاستفهام الوارد في الآية استفهام تعجبي وليس استفهاماً استنكارياً كما ظنّه البعض، فتعجبهم كان مرتبطاً بمحدودية تفكيرهم، فإيجاد خليفة من وجهة نظرهم يعني سفك الدماء والإفساد في الأرض ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وكان جواب الله عز وجل للملائكة مقتضباً موجزاً وحاسماً ومؤكداً في الوقت ذاته في قوله: (إني أعلم ما لا تعلمون)، وقد برهن الله تعالى على علمه المطلق مقارنة بعلم ملائكته المحدود بطريقة غير مباشرة، فعلّم آدم المسميات جميعها ثم عرضها على الملائكة، وطلب منهم إخباره بأسمائها، فعجزوا عن ذلك، ثم أمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم فامتثل آدم لأمره تعالى. وبهذا الموقف يكون الله سبحانه وتعالى قد أثبت للملائكة قصور علمهم مقارنة بعلمه سبحانه، فهو عالم الغيب والشهادة، وتكون رسالة المفارقة قد وصلت إليهم.

وقد بدأ الحوار القصصي بواو الاستئناف التي تنبّه القارئ لسماع كلام جديد، واقترانها بـ (إذ) الظرف المبني الدال على الزمان يُشعر بقصّ أحداث حصلت في الماضي البعيد.

وفي قوله تعالى﴿إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ [البقرة: ٣٠] جاء اسم الفاعل جْاعل دالاً على الثبات والاستمرارية، وهذا يتناسب مع علم الله الذي لا يحده حد ويقابله الفعل (تجعل) الذي يفيد عدم الثبات والتقلب؛ فالله علمه غير محدود مقارنة بعلم الملائكة اللحظي ونظرتهم القاصرة عن إدراك مراد الخالق، أضف إلى ذلك أن أمر خلق خليفة في الأرض ظاهره شر من وجهة نظر الملائكة، وفي باطنه خير عظيم وهو إعمار الأرض. وكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ تُبين الهدف الذي من أجله خُلق آدم وذريته، و(الأرض) هي مكان الاستخلاف. وقد جاء اعتراف الملائكة بمحدودية علمهم، وأن علمهم مرتبط بتعليم الله سبحانه وتعالى لهم في نهاية الآيات.

فقد وردت كلمة (علم) ومشتقاتها في هذه الآية ثماني مرات، وفيها دلالة على أن علم الله مطلق مقابل محدودية علم مخلوقاته.

كما ورد جذر (قال) ثماني مرات دلالة على فاعلية الحوار والتخاطب بين الله تعالى وملائكته، أضف إلى ذلك أن الحوار كان من الطرفين، فلم يستأثر به طرف دون آخر. والمفارقة تتجلى في الحوار السابق في علم الله عز وجل بخضوع الملائكة المطلق له، إلا أن خطابه تضمن جملة من المؤكدات. ويظهر

هذا في قوله ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] و﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي ذلك رد على تعجبهم واندهاشهم من إيجاد مخلوقات سواهم.

المفارقة في حوار ابني آدم

يحكي هذا الحوار ما جرى بين ابني آدم، ولم يذكر القرآن الكريم اسماً لهما كعادته في إغفال ذكر الأسماء التي لا تعين على الوصول إلى الهدف الذي من أجله تُساق مثل هذه القصص.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣٠].

ويتبين من الحوار السابق أن سبب الحقد والتخاصم بين الطرفين هو الحسد المتمثل في قبول الله سبحانه وتعالى قربان أحدهما دون الآخر، وقد صور القرآن الكريم القصة بأكملها عن طريق أسلوب الحوار النابض بالحركة، والمفارقة تتبدى في أن الطرف الأول المتمثل بجانب الشر يُعبر عن مكنونات نفسه الحاقدة بقوله: (لأقتلنك) دون مراعاة لرابطة الأخوة بينهما، ويدل هذا الفعل على قُرب الطرف الثاني منه فهما متقابلان وجهاً لوجه، ويردّ الطرف الثاني المتمثل بجانب الخير ببيان سبب قبول الله سبحانه وتعالى قربانه، وأن الله لا يتقبل إلا من المتقين، وكأنه بمقولته هذه يحثه على أن يكون تقياً

ليثنيه عما عزم عليه من فعل القتل.

والمفارقة هنا تتمثل في إجابة الأخ أنه لا يُقابل إساءة أخيه بالمثل؛ فإذا بسط أخوه يده ليقتله فلن يبسطها هو،ويبرر ذلك بخوفه من الله تعالى، فالمتلقي يتوقع من الأخ أن تهدأ ثائرة نفسه ويثوب إلى رشده بعد سماعه لكلمات أخيه التي تفيض بعاطفة دينية وإنسانية،لكن كلمات أخيه هذه تأخذ منحىً آخر فتطوع له نفسه قتل أخيه، وللفعل (طوّع) دلالته في أن الفطرة تأبى على الإنسان أن يقتل أخاه وأنه حاول قتله في مرات سابقة، لكنه أفلح في نهاية الأمر، " ولفظ طوّعت يوحي بأنه كان يشعر بعِظَم الجريمة، وأن قتل أخيه أمر صعب، ولكن نفسه زينت له ذلك ويسرته في خياله، والتعبير بالفاء في العطف هنا يوحي بتلاحق المشاعر في نفس هذا الشرير في سرعة وعجلة لا يراد بها السرعة الزمنية، وإنما يراد عدم وجود فاصل للتروي والتدبر، لأنه لا يستخدم تفكيره، فكأن المشاعر والأحداث تتتابع في عجلة وتلاحق لا يفصل بينهما أي تفكير أو تدبّر" (١)

وتكمن المفارقة أيضاً في قلة حديث المتحاور الأول الذي اقتصر كلامه على جملة واحدة مؤكدة (لأقتلنّك)، في المقابل نجد أن الطرف الثاني وضع

---

(١) حفني، عبد الحليم، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص ١١٢.

مقولات عديدة أمام أخيه تدرجت حدتها من بيان سبب قبول الله قربانه إلى إنذاره من عقاب الله له، وأنه سيكون من الظالمين، " فجملة القاتل مُكثّفة في لفظة واحدة (لأقتلنّك) يكتنفها التوكيد من أمامها ومن ورائها، فتبتدئ بلام التوكيد وتنتهي بنون التوكيد الثقيلة، فتكون قاطعة كحد حجر الصوان التي قتل بها أخاه، فالتوتر الشعوري الذي أدى إلى القتل انبثق هنا في جملة حوارية مضغوطة ضغطاً يقربها من الانفجار كما كانت نفسية القاتل قبل القتل، لكن المقتول السمح النفس جاء في حواره رغم التهديد بجملة طويلة رخية بألفاظ لينة، ألا نرى لفظة (بسط) التي جاءت بصيغتين كيف تعبر ببراعة عن بساطة وسماحة المقتول "(١).

وتكشف المفارقة في هذا الحوار عن تضاد حركي في نوازع الشر والخير في النفس البشرية، بين دافع القتل الذي يموج بالحركة والعنف، وبين الإنسان الواثق بالله التي تتصف نفسه بالسكينة، وهذا يبدو في قوله: إن بسطت يدك ما أنا بباسط، فالفعل (بسطت) يدل على الحركة، أما اسم الفاعل باسط فيدل على الثبات والسكون " وقد جاء الشرط في مقولته بلفظ الفعل (لئن بسطت) وجاء الجزاء باسم الفاعل منفياً بها والباء للتأكيد (ما أنا بباسط)، ونفي الصفة أبلغ من نفي الفعل لما يوحي به الفعل من تقلب وحركة وما توحي به الصفة

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص١٧٩.

من ثبات وديمومة، وفي هذا استعطاف لأخيه وتقبيح للفعل الذي سيقدم عليه وتأكيد بأنه نزوة غضب عارضة تزول بزوال أسبابها المتمثلة في الأنانية والحسد وحب الذات والحقد." [1]

(١) نزال، فوز، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص ٥٣.

المفارقة في حوار نوح مع قومه

لقد تشابهتْ دعوة الأنبياء أقوامهم في مضمونها وفي استجابتهم لها؛ إذ إنّهم يكذّبون أنبياء الله متذرعين بأسباب لا تمتّ للدعوة بصلة، وهذا ما نراه جلياً في حوار نوح مع قومه؛ الذين استكبروا وأصرّوا على الضلال.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥ – ٢٧].

واللافت في هذه الآيات الكريمة أن نوحاً عليه السلام يدعو قومه خوفاً عليهم من عذاب الله وحباً في إيمانهم، وتظهر المفارقة هنا أنهم لا يقبلون دعوته لأنه بشر مثلهم ويتركون أمر هذه الدعوة ويجادلونه في أمر لا علاقة للدعوة به، فيجادلونه في كون الذين اتبعوه أقل شأناً منهم ومن مكانتهم الأرستقراطية، ولم يفطنوا أنهم في نهاية المطاف بشر، وأن رسالة نوح لا تميّز بينهم، وأن معيار المفاضلة ليس دنيوياً كما ظنّوا.

المفارقة في حوارات إبراهيم عليه السلام

ثمة حوارات كثيرة وردت في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام، فهناك حواره مع أبيه يستعطفه ليؤمن بالله، وهناك حواره مع قومه الذي يظهر فيه إبراهيم عليه السلام غاية في الفطنة والذكاء، وفي حواره مع الملك الذي ادعى الربوبية تظهر قدرته في الحجاج والجدال وتفوقه فيه.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤١ – ٤٧].

وتبدو المفارقة واضحةً في حوار إبراهيم مع أبيه في دعوته إلى الله، فإبراهيم عليه السلام يتصف باللين والرفق في حواره، وفي المقابل يتصف الأب بالغلظة والقسوة والعناد، ولعل تكرار إبراهيم لكلمة (يا أبت) من شأنها أن تلين القلب وتزيد من عاطفة الأبوة، "واستعمل في نداء أبيه (يا) التي للبعيد مع أنه بجواره للإشعار برفعته وعلو منزلته عنده وشدة حرصه عليه، وليس هذا نداء محضاً بل يحمل في طياته الإشفاق والتلطف والاستمالة

بتحريك مشاعر الأبوة "[1].

كما أننا نلمس محاولة إبراهيم إزالة الحواجز بينهما في حذف الألف من أداة النداء الياء، ويدل أيضاً على مدى حبه وحرصه الشديدين على إيمانه، ويقابل ذلك عبارة الأب التي تلفها القسوة والصرامة والتهديد والوعيد.

وفي جملة (إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) تعارض ظاهري بين كلمتي (العذاب، والرحمن)، فلماذا ذكر إبراهيم هذا الاسم من أسماء الله الحسنى دون غيره الذي يناسب سياق العذاب، من مثل: القوي، المنتقم، الجبار، ولعلّ ذلك يعود إلى شخصية إبراهيم التي تتصف بالرقة واللين، وهو يريد بذلك أن يرغّب أباه بالإيمان بالله تعالى الرحمن الرحيم.

وتتبدى المفارقة هنا في إجابة الأب، فبعد كل هذا الرفق اللامتناهي يأتي جواب الأب خارج التوقعات كلّها، في قوله (لأرجمنّك) المؤكدة بتوكيدين يوحيان بمدى الحقد والكره والرغبة في عقاب الضّال عن طريقهم وعقيدتهم، وليس هذا فحسب وإنما يأتي فعل الأمر (اهجرني) ليصعّد حدة الموقف بينهما. وعلى الرغم من كلّ ذلك يختتم إبراهيم حواره مع أبيه بالدعاء له بالسلام والهداية.

---

(١) أبو ستيت، شحات، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ط١، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٩١م، ص٣٠.

ويكشف لنا إبراهيم عليه السلام في حواره مع قومه عن مدى ذكائه وفطنته في إقامة الحجة عليهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ – ٦٣] وهذا الحوار يكشف عن مفارقة في مقولة إبراهيم وما يعتقد به، ولمّا كان قومه على علم بمخالفته معتقداتهم، بادروه بسؤال يحمل في طياته التوبيخ والتهديد والوعيد: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وفي رده عليهم دهاء وسرعة بديهة؛ فقد فَهِمَ ما يرمون إليه من إسناد فعل التحطيم له، فبدأ جوابه بحرف الإضراب (بل)، ليقدّر السامع الكلام المحذوف من سياق الحوار ومفاده: لست أنا من حطّم هذه الأصنام بل فعلها كبيرهم.

وفي إسناد إبراهيم – عليه السلام – أمر الفعل للصنم مفارقة واستهزاء وتعريض بعقولهم وما يؤمنون به، وتزيد نبرة السخرية بقوله لهم أن يسألوا أصنامهم المحطمة من فعل بها هذا إن استطاعت أن تنطق.

وهذا حوار آخر بين إبراهيم – عليه السلام – والملك الذي ادّعى الربوبية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويبدأ إبراهيم – عليه السلام – الحوار بتقرير صفة من صفات الله تعالى

وهي قدرته على الإحياء والإماتة، ليرد عليه هذا الملك الواقع ضحية للكبر والعتو والغفلة أنه يقوم بالفعل نفسه، غافلاً عن المعنى الحقيقي للفظتي (الإحياء والإماتة)، ولما علم إبراهيم عليه السلام أن حواره مع هذا العاتي لن يجدي نفعاً أوقع عليه الحجة بطريقة غير مباشر وذلك بقوله له أن يأتي بالشمس من المغرب، لأن الله يأتي بالشمس من المشرق، فبهت الذي كفر ولم يردَّ جواباً.

المفارقة في حوار موسى مع قومه

لم يرد هذا الحوار على امتداد القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة البقرة التي سميت باسم البقرة وكأنها تشي بطبيعة اليهود؛ إذ إنهم يتهربون.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧ – ٧٢].

وتتجلى المفارقة هنا في إخبار موسى – عليه السلام – بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة لم يحدد لهم صفتها تسهيلاً وتيسيراً عليهم، إلا أنهم أصروا على أن يجعلوا الأمر عسيراً بكثرة أسئلتهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فجاءت بقرة نكرة غير معرفة وغير موصوفة؛ فالله سبحانه وتعالى يأمرهم أن يذبحوا أية بقرة، ولكن قوم موسى كعادتهم متشككون غير واثقين، وعلى الرغم من أن مقولة موسى –عليه السلام – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ مؤكدة وفيها إلزامٌ وحزمٌ، إلا أن في رد قومه نوع من الاستهزاء والسخرية وعدم التصديق، فبدلاً من امتثالهم للأمر بدوا متشككين أن يكون الأمر من عند الله.

وتبدأ حوارات قومه معه في سؤالهم أن يبين لهم صفتها وفي ظنهم أنهم بذلك يدفعون عن أنفسهم مشقة الامتثال للأمر، ولم يعرفوا أنهم كانوا يضيّقون على أنفسهم في كل مرة، ففي سؤالهم المرة الأولى عن عمرها هل هي فتية أم مسنّة جاء الرد عليهم أنها متوسطة العمر، وزيادة في تأكيد صفتها قال الله تعالى عنها: إنها لا فارض ولا بكر (عوان بين ذلك) وفي هذا تعريض بهم، واستخفاف بعقولهم.

ولم يكتف قومه بتلك الصفة وإنما زادوا في التضييق على أنفسهم؛ فطلبوا من موسى أن يسأل الله تعالى عن لونها، فكان الجواب محدداً أنها صفراء ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] ومع كل هذا التوضيح إلا أنهم يطلبون زيادة في صفتها؛ فيأتي الجواب على تساؤلهم أنها بقرة غير مختصة بعمل ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] وفي توكيدهم ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] يتناقض مع نيتهم في الامتثال، وهذا يتضح بقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، وتظهر المفارقة في الحوار السابق من خلال أسئلتهم الكثيرة عن صفة البقرة التي يظهرون فيها حرصهم على الامتثال لأمر الله، لكنها تخفي في طياتها تعنتاً واستكباراً، وعلاوةً على ذلك أنهم ضيقوا واسعاً، وثمة مفارقة أخرى في قولهم " الآن جئت بالحق" في نهاية الآيات، فكأن موسى عليه السلام لم يأتهم بالحق قبل ذلك.

المفارقة في حوار قارون وقومه

تمثل قصة قارون نموذج الإنسان الجاحد لنعمة الله " ليجسد الصورة الحية للإنسان الذي يمثل المال – في وعيه – قيمة حياتية كبرى تتضخم بها شخصيته وتنتفخ بها ذاته، فيشعر بالزهو والغرور الذي يملك عليه كل مشاعره وأفكاره، حتى لينسى ربه، فينسى – من خلال ذلك – نفسه، ويتعاظم إلى المستوى الذي يرى فيه نفسه فوق الناس، وتتساقط أمامه كل القيم والمقدسات، وتتضاءل لديه كل المسؤوليات والواجبات، ويزحف المال إلى كل خلية من خلايا فكره "[1].

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ – ٧٧] إن المتأمل في هذه القصة القرآنية ليصاب بالدهشة من هذا الملك الذي أتاه الله المال والجاه، فكان سبباً في طغيانه واستعلائه، وبالرغم من محاولة قومه الذين اتصفوا بالإيمان هدايته ورده عن العتوّ والضلال إلا أن دعوتهم له لا تزيده إلا غروراً، وتكمن المفارقة هنا في إسناد قارون العلم إلى ذاته، ولحرف الجر (على) في قوله (إنما

---

(١) فضل الله، محمد، الحوار في القرآن، ص ٣٤١ .

أوتيته على علم عندي) دلالة على مدى التكبّر والاستعلاء والشعور بالعظمة، وتأكيداً لذلك يتبعها بشبه الجملة الظرفية (عندي) التي تزيد من هذا الشعور. والملاحظ في هذه الآيات أن قوم قارون قدّموا مقولات عدة في نصحه ووعظه، ويقابل هذا مقولة واحدة مكثّفة تشي بما كان يحسبه من شعور التكبر والاستعلاء.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٩ – ٨٣].

وتبرز مفارقة أخرى في هذه الآيات بين الذين يريدون الحياة الدنيا والذين أوتوا العلم، فالطرف الأول غرّه ظاهر الحياة المترفة المتمثلة بكنوز قارون فتمنّوا أن يكونوا مكانه غافلين عن حقيقة فناء الحياة الدنيا وزينتها بخلاف قناعة الطرف الثاني. وتكمن المفارقة هنا في تبدل قناعة الطرف الأول من الضد إلى الضد بعد أن خسف الله بقارون الأرض، وتكون بذلك قد وصلت لهم رسالة المفارقة.

المفارقة في حوار مريم - عليها السلام - مع الملك

وسنعرض هنا لحوار مريم مع الملك الذي تمثّل لها بهيئة بشر، حيث مريم العابدة تجلس في خلوتها بعيدة عن البشر وهمومهم الأرضية، فتتفاجأ بوجود أحدهم يقطعها عن هذه الخلوة، فكيف لمثل هذه الفتاة العذراء أن تواجه هذا الموقف الرهيب، فتلجأ إلى ربها متضرعة تستعيذه من هذا الشر المحتمل، ويحاول هذا البشر طمأنتها بقوله: إنه ملك مرسل إليها من الله فتهدأ قليلاً، لكن ما يلبث أن يبشرها أنه سيهب لها غلاماً، فتعود إلى خوفها السابق وربما كان خوفها هذه المرة أشد، فكيف يكون لها غلام وهي المرأة العذراء العفيفة! لكن قدرة الله تعالى لا يحدها شيء، وبهذا استسلمت مريم لإرادة الله ومشيئته

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾

[مريم: ١٦ – ٢٦].

ومن الأمر الطبيعي أن يستعيذ الإنسان مما يشكل له خطراً أو مما يخيفه كالشياطين أو الجن مثلاً، ومريم عليها السلام وهي في خلوتها تلك بعدما اتخذت من دون أهلها حجاباً تفاجأت بوجود بشر فتطلب حماية الله ورعايته لها، ولا غرابة في ذلك، فردة الفعل هذه تصدر عن أية امرأة تطلب العون والستر، ولكن كيف يتوافق المعنى مع تتمة الآية الكريمة (إن كنت تقيا) فالمعنى السطحي المباشر: أنها تطلب العون من الله إذا كان هذا البشر تقياً، وكان الأولى أن تستعيذ ممن لا يخاف الله؛ لأن الإيذاء سيكون أكثر توقعاً منه.

ونستطيع أن نرفع عن الآية الكريمة المفارقة والغموض والتعارض الظاهري بعد قراءتها في سياقها القرآني مرات عدة، وتمثل الجو النفسي الذي يحيط بمريم عليها السلام، فهي في حالة خوف وذعر شديدين، وهذا يقتضي التلعثم في أحيان والحذف في أحيان أخرى، فالإنسان الخائف لا يستطيع أن يعبر عن المعنى الذي يريده بإسهاب وإنما يكون كلامه مقتصراً على ما هو مهم، فربما يكتفي بالإشارة أو الكلمة، ومريم هنا تستعيذ من أي أذى يمكن أن يلحقه هذا الرجل بها، لكنها في المقابل تحاول أن تستثير فيه عاطفة الخوف من الله؛ لتحمله على أن يكون تقياً وأن لا يمسسها بسوء ولو كانت نيته بخلاف ذلك.

المفارقة في حوار قوم صالح

يعرض هذا الحوار حلقة من حلقات قصة صالح التي تصوّر دعوته قومه وتذكيره لهم بنِعَم الله عليهم، وأن الله أرسل لهم الناقة آية، فيوصيهم بأن لا يمسوها بسوء ويحذرهم من عاقبة ذلك.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وتظهر المفارقة في محاولة الذين استكبروا من قومه أن يزرعوا بذور الشك في قلوب الذين استضعفوا وذلك بجملة استفهامية، الظاهر منها التأكيد أن صالحاً رسول من عند الله وباطنها التشكيك بأمر نبوته.

ويأتي جواب أولئك المؤمنين بثبات وحزم أنهم آمنوا بما أرسل إليهم، وتكون المفارقة والدهشة في إجابة الذين استكبروا فهم ينفون عن أنفسهم الإيمان بطريقة غير مباشرة، فبعدما تأكدوا من صدق إيمان المستضعفين؛ يخبرونهم أنهم كفروا بالذي آمنوا به دون أن يشيروا إلى صالح -عليه السلام- ."والجملة الاسمية المؤكدة تدل على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه."(١)

(١) انظر، إسماعيل، طالب، أساليب المحاورة في القرآن الكريم، ط١، المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي، الأردن، ٢٠١٠م، ص ٢١١.

المفارقة في حوار لوط مع قومه

المتأمل في قصة لوط عليه السلام يلحظ في بادئها مفارقة جلية؛ إذ إن المتعارف عليه أن الإنسان يُسَرُّ بقدوم الضيف، إلا أن لوطاً عليه السلام ساء بهم وضاق، وذلك بسبب ما عرف عن قومه من ارتكابهم للفاحشة، فتخوف من الفضيحة.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٧ - ٧٩].

فبعد مجيء ضيوفه يسارع لوط عليه السلام في إيجاد حل لهذه المصيبة التي أحاطت به فلا يتردد في عرض بناته بدلاً من ارتكابهم الفاحشة، والمفارقة تتبدى في إجابتهم غير المتوقعة عندما يقولون له إنه لا حق لهم في بناته.

وتكمن المفارقة هنا أن قوم لوط الذين تمادوا في ضلالهم وشذوذهم غير المعهود، ما زالوا يعرفون الحق ويتّبعون خلافه.

" فقوم لوط في أذهاننا شر محض، لكنهم عندما يعرض عليهم لوط بناته يقولون: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩] لم يقولوا ما لنا في بناتك من شهوة مثلاً وإنما ذكروا الحق، فرغم انحرافهم الشنيع من الناحية

الجنسية إلا أنهم يذكرون الحق "[1].

فقد تمثّلت المفارقة في الحوار السابق أن قوم لوط يعرفون الحقّ والباطل لكنّهم يصرّون على اتباع الباطل عناداً، فيفارقون بذلك فطرتهم السليمة التي تتجه إلى الطمأنينة.

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص٢١٩.

المفارقة في حوار شعيب مع قومه

يتضمّن هذا الحوار دعوة شعيب قومه إلى عبادة الله، ويحذرهم من عاقبة بخس الناس أشياءهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤ – ٨٧].

وتبدو المفارقة هنا في رد قومه عليه، فبدلاً من استجابتهم لدعوته استهزأوا وسخروا منه ومن صلاته ودينه. وهنا مفارقة أخرى تتجلى في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وقصدهم في ذلك الضد تماماً، فلو أنهم موقنون برشاد عقله لاتبعوه واتبعوا ما جاء به، "وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إنّ) و(لام) التوكيد، وبصيغة القصر في جملة ﴿لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ فاشتملت على أربعة مؤكدات "[1] وهذا يعطي قوة في المفارقة، فكيف يمكن أن تؤكد أمراً لست مؤمناً به!

---

(١) إسماعيل، طالب، أساليب المحاورة في القرآن الكريم، ص ٢٣٧.

المفارقة في حوار ملكة سبأ

يبين لنا هذا الحوار الخارجي الذي دار بين جنود سليمان - عليه السلام - وملكة سبأ سرعة بديهة تلك الملكة، قَالَ تعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، فعندما سئلت ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ جاء جوابها مثبتاً منفياً في الوقت ذاته، موجزاً دالاً على شدة وقع الصدمة عليها﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾[النمل: ٤٢] فتكمن المفارقة هنا في أنها لم تستطع تأكيد الأمر مع يقينها أنه عرشها، فهي لم تصدق أنه موجود في مملكة سليمان التي تبعد عن مملكتها كثيراً، فكيف له أن ينتقل بهذه السرعة غير المعهودة ليستقر عنده، فهذه مفارقة بين المعرفة الحقيقية والمعرفة المموهة لغاية الدهشة.

الفصل الثالث

المفارقة وبناء الصورة

مفهوم الصورة

ورد في لسان العرب تحت مادة (صور): وَالْجَمْعُ صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وَقَدْ صَوَّرَهُ فَتَصَوَّرَ... توهمت صورته فتصور لي، والتصاوير التماثيل قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته ، وعلى معنى صفته ، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته." (١)

والمتأمل في المعنى اللغوي للصورة يجد أنها أفادت معنى الشكل العام والمظهر الخارجي للأشياء، فصورة الشيء هي صفته وهيئته الخارجية.

وأما إذا تتبعنا مادة صور في القرآن الكريم فإننا نجدها قد تكررت ست مرات في صيغ مختلفة تشترك جميعها في المفهوم اللغوي للصورة على النحو الآتي:

١. جاءت في صيغة الماضي مرتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف:١١] وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وفي صيغة المضارع مرة، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة صور، (٤/ ٤٧٣).

يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦].

٢. وفي صيغة اسم الفاعل مرة، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الحشر: ٢٤].

٣. وفي صيغة المفرد مرة، في قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨].

٤. وفي صيغة الجمع مرة، في قوله تعالى: ﴿ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٤].

ويقول ابن عاشور: " التصوير جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يشكل به الجسم كما يشكل الطين بصورة نوع من الأنواع، لأن التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسناً وشرفاً، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير."[١]

ونستطيع القول إن مفهوم الصورة في القرآن الكريم انحصر في فعل التصوير؛ أي إنها مرتبة بعد الخلق. وبما أن الله جميل ويحب الجمال كانت الصورة المعطاة للخلق (ومنه الإنسان)، جميلة وفي أحسن تقويم وصورة، ولم يكن هذا التصوير خارجياً وشكلياً فقط، بل شمل الوجدان والعاطفة والعقل وما يجمع بينهما من مدارك.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣، ص١٥٢.

الصورة في النقد القديم

يعد الجاحظ من أوائل النقاد الذين اهتموا بموضوع الصورة، فقد عدّ الشعر ضربًا من التصوير في قوله: " إنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير."(١)

وهذا يتوافق مع نظرته لقضية اللفظ والمعنى ، فالمعاني عنده مطروحة في الطريق، والأهمية للفظ بما يحمل من أسلوب وبيان وبلاغة، ولهذا نظر للصورة نظرة لا تتجاوز حدود الشكل الخارجي.

وتابعه بعد ذلك الرماني " فقد صار التصوير عنده أكثر تخلقاً وتحديداً إذ تبلور في تجسيد المعنويات في ثورة المحسوسات التي تُرى بالأبصار، وقد عول على هذه السمة البارزة في تتبع تشبيهات واستعارات القرآن الكريم لبيان ما فيها من قيمة وتميز وتأثير."(٢)

وخطا الجرجاني خطوات مهمة في تأصيل مفهوم الصورة وبيان أهميتها للعمل الأدبي، وعبر عن ذلك في كتابه دلائل الإعجاز بقوله: " ومعلوم أن

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، المجمع العالمي العربي الإسلامي، ١٩٦٩م، ج٣، ص١٣٢.

(٢) شادي، محمد إبراهيم، الصورة بين القدماء والمعاصرين، ط١، مطبعة السعادة، ١٩٩١م، ص١٨.

سبيل الكلام التصوير والبلاغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم وسوار."[1]

نرى هنا أن الجرجاني شبه المعنى بالذهب والفضة، فهي معادن ثمينة ولكن لا نتبين جمالها إلا إذا صيغت بأشكال جميلة متخذة شكل الخاتم أو السوار، وهكذا تكون شأن الصورة في صياغة المعنى بأسلوب جميل وهذا يعيدنا إلى مقولة الجاحظ الذي يفضل اللفظ على المعنى، ففيه تتبين مقدرة الشاعر على صياغة المعاني بألفاظ بديعة.

وبعد هذا العرض الموجز لآراء أبرز النقاد القدماء في مفهوم الصورة نرى أن الجاحظ كان له السبق في تأصيل هذه النظرية، وأن الجرجاني له فضل إيضاحها وبيان أهميتها، ومع ذلك لم تتجاوز نظرتهم للصورة علوم البلاغة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، كما أن الصورة ظلت مرتبطة عندهم باللفظ دون المعنى.

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ص٢٥.

الصورة في النقد الحديث

لقد تطور مفهوم الصورة في النقد الحديث واكتسب معاني جديدة، وذلك وفقاً للحقل الذي درس فيه، ومن هذه العلوم علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والأدب، وسنتوقف عند الصورة الأدبية، موضوع بحثنا.

مفهوم الصورة في النقد الحديث واسع غير محدد، فمنهم من يعدها امتداداً للبلاغة القديمة من تشبيه واستعارة وكناية، ومنهم من نظر إليها بوصفها صورة حسية بما تحمله هذه الكلمة من معنى التجسيد، وذلك بتوظيف عناصرمثل اللون والصوت والحركة، وقسمت تبعاً لذلك إلى أنواع، فمنها الصورة البصرية والسمعية " والشمية، والذوقية، والحركية واللمسية. ونستطيع القول إن: " الإدراك الحسي هو الأثر النفسي الذي ينشأ مباشرة من انفعال حاسة أو عضو حساس، ومن الوجهة النفسية إن الإدراك الحسي هو أساس العمليات العقلية وهو يعني الفهم أو التعقل بوساطة الحواس."(١)

" تمر عملية الاستجابة الجمالية بعدة مراحل، أولها الإدراك الحسي للموضوع الجمالي، وذلك عن طريق الحواس الإنسانية الخمس المعروفة، ثم يتم ترجمة هذه الموجات الحسية عن طريق المخ إلى مدركات عقلية ترتد مرة

---

(١) عتيق، عبد العزيز، في النقد الأدبي، دار النهضة، بيروت – لبنان، ص ٦٨ .

أخرى في صور الأحاسيس والانفعالات."[1]

وسنعرض هنا أهم آراء النقاد المحدَثين في مفهومهم للصورة:

يطالعنا مفهومٌ للصورة في كتاب الصورة الشعرية، فالصورة " رسمٌ قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة، إن الطابع الأعم للصورة هو كونها مرئية، وكثيراً من الصور التي تبدو غير حسية لها مع ذلك في الحقيقة ترابط مرئي باهت ملتصق بها، ولكن من الواضح أن الصورة تستقي من الحواس الأخرى أكثر من استقائها من النظر."[2]

وهذا يعني أن الحواس جميعها تشترك في خلق الصورة كما أن للعاطفة أهمية في إضفاء نوع من الحياة والرونق.

ويقول إحسان عباس: " دراسة الصور مجتمعة قد تعين على كشف معنى أعمق من المعنى الظاهري للقصيدة، ذلك لأن الصور وهي جميع الأشكال المجازية إنما تكون من عمل القوة الخالقة، فالاتجاه إلى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعر."[3] وفي قوله هذا يدعو إلى دراسة الصور الفنية مجتمعة في الشعر، فدراستها تعطي عمقاً آخر للنص، ولعله قصد بالصورة معناها القديم الذي

---

(١) يونس، عيد سعد، التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨٣.

(٢) لويس، س.د، الصورة الشعرية، ط١، دار الرشيد، ١٩٨٢م، ص ٢١.

(٣) عباس، إحسان، فن الشعر، ط١، دار بيروت، ١٩٥٩م، ص٢٣٨.

يشمل أنواع المجاز المختلفة.

ويقول الرباعي " الصورة مولود نضر لقوة خلاقة هي الخيال ، والخيال نشاط فعال يعمل على استنفار كينونة الأشياء ليبني منها عملاً فنياً متحد الأجزاء منسجماً، فيه هزة للقلب ومتعة للنفس."(١) وهنا يبرز دور الخيال جلياً في خلق الصورة ولمّ شتاتها، كما أن للصورة وظيفة جمالية، فهي تمنح لذةً للمتلقي.

وفي موضع آخر يرى الرباعي أن الصورة هي: "أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن، شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن."(٢)

وهنا تبدو وظيفة أخرى للخيال عند المتلقي الذي يسعى جاهداً من خلال الكلمات الموحية أن يرسم صوراً في خياله مستعيناً في ذلك بقوة الخيال عنده.

وفي رأي ساسين عساف أن الصورة تشمل الفكرة والعاطفة معاً، وبعد ذلك تتخذ شكلها باختلاف الخطوط والألوان التي تشكلت منها، وتعطي الصورة فهماً أعمق بائتلاف عناصرها: " الصورة كلام مشحون شحناً قوياً يتألف عادة من عناصر محسوسة، خطوط، ألوان وحركة تحمل في تضاعيفها

---

(١) الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري، ط١، دار جرير، ٢٠٠٩م، ص٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣.

فكرة وعاطفة، أي إنها توحي بأكثر من المعنى الظاهر وأكثر من انعكاس الواقع الخارجي وتؤلف في مجموعها كلاماً منسجماً."[1]

ويقول مصطفى ناصف: " تستعمل كلمة الصورة عادة للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي ، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات ، وقد يظن أن ربط الصورة بالاستعمال الاستعاري الحي أكثر صواباً لأنه أوفى تحديداً."[2]

ويعرّف عبد الإله الصائغ الصورة؛ بأنّها: " تشكيل جمالي تستحضر فيه لغة الإبداع الهيئة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تمليها قدرة الشاعر وتجربته وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة دون أن يستبد طرف بآخر."[3]

و"الصورة الشعرية هي صورة حسية بالكلمات ومجازية إلى حد ما، كما أنها تحوي شعوراً إنسانياً وتطلق في القارئ شعوراً أو عاطفة شعورية، وتعتمد

---

(١) عساف، ساسين، الصورة الشعرية ونماذجها في شعر أبي نواس، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م، ص١٩٣ نقلاً عن روز غريب .

(٢) ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، ط٢، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ١٩٨٣م، ص٣.

(٣) الصائغ، عبد الإله، الصورة الفنية معياراً، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨١م، ص١٥٩.

الصورة الشعرية على التشبيه والاستعارة."[1]

فالصورة الأدبية في نهاية الأمر تعبير جمالي لصور حقيقية بلغة مجازية تستقي مادتها من الحواس، ويكون للعاطفة والخيال دور مهم في تشكيلها.

---

(١) نافع، عبد الفتاح، الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر، عمان – الأردن، ١٩٨٣م، ص٧٨ نقلاً عن the poetic image.

الصورة القرآنية

لما كان القرآن الكريم المعجزة الخالدة، لا يَخلَق بمرور الوقت ولا بكثرة الدراسات، آثرت أن أتوقف عند الصورة القرآنية التي كانت من أهم خصائص القصص القرآني الذي قام على أسلوب التصوير في عرض مشاهده، لأبين من خلال ذلك جماليات المفارقة مستعينة بطاقات اللغة ودلالات الألفاظ وقوة العاطفة والخيال فيها.

ويعد سيد قطب مؤسس نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم، أن "التصوير هو الأداة المفضلة في القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة."[١]

وقد قصدت بالصورة القرآنية؛ تلك المشاهد التي تضافرت فيها عناصر اللغة، واللون، والحركة، وما تثيرها من عاطفة لدى المتلقي، ولم أغفل عنصر الإيقاع وما يوفره من موسيقى تأخذ بالألباب.

وقد اختلفت الصورة القرآنية عن الصورة الأدبية بما تضمنته من وقائع

---

(١) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ص٣٦.

حقيقية، خلاف الصورة الأدبية التي يشكل الخيال فيها الركيزة الأساسية؛ إذ إن "الصورة تعبر عن تجربة الشاعر الفنية التي يرمز بها للواقع كما يتخيله ، وقد لا تسعفه ألفاظ اللغة العادية، فيرى نفسه مدفوعاً بثورة خياله إلى تشكيل علاقات لغوية خاصة يؤلفها بخياله المبدع ليعبر عن رؤية خاصة به."(١)

فلا يشترط للأديب عندما يخلق صوره أن تكون مستمدة من واقعه " فالصورة لا تعنى بالنسخ الحرفي للواقع أو مسخه مسخاً، فهي لا تنقل ما فيه من أشياء نقلاً آلياً، بل هي عالم جديد بما تحويه من إعادة بناء للحياة نفسها، وبعث الإدراك في الجوامد وتنسيق وتنظيم لعلاقات مبتكرة يبدعها المدرك الفنان وتوظيف اللغة توظيفاً غير عادي لتعطي للمبدع ضالته المنشودة في ترجمة معاشة"(٢).

وتختلف الصورة القرآنية عن الصورة الفنية في موضوعها المستمد من القرآن، وهو الموضوع الديني، وكذلك يختلف الهدف من هذه الصور فقد جاءت أسلوباً فريداً للقرآن الكريم لتؤثر في الأفئدة والعقول، ولم يكن الهدف منها جمالياً بحتاً كما هو حال الصور الفنية، أضف إلى ذلك الوظيفة التي تؤديها الصورة القرآنية فيما تثيره من عاطفة الخوف والرجاء.

---

(١) أبو زيد، علي، الصورة الفنية في شعر دعبل، ط١، دار المعارف، القاهرة – مصر، ١٩٨١م، ص٢٤١.

(٢) أبو زيد، علي، الصورة الفنية في شعر دعبل، ص٢٤٤.

إن " ظاهرة التصوير الفني هي أبرز ما تكون في القصة القرآنية كغرض من أغراض التعبير في القرآن الكريم ، وهي أبرز الخصائص الفنية في القصة كذلك، إن القصة القرآنية تستحيل بوساطة التصوير حادثاً شاخصاً يقع، ومشهداً حياً يجري وحركة فنية تقوم بها أبطال القصة وشخوصها."(١)

عناصر الصورة القرآنية

إذا أردنا دراسة الصورة القرآنية فيلزمنا التوقف عند عناصر بنائها، وهذه الدراسة لا تعني تجزئة الصورة وإنما الغرض من ذلك التعرف على تلك العناصر بشكلها النظري، ولا يمكن دراسة هذه العناصر إلا مجتمعة.

ويرى سيد قطب أن الصورة القرآنية تتكون من عناصر، فالصورة عنده " تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان، فهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانيات، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس

(١) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط١، دار الفرقان، ١٩٨٣م، ص٢٣٣.

آدمية، حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة."[1]

أولاً: الموضوع

يتميز موضوع الصورة القرآنية بأنه يدور حول فكرة واحدة مرتبطة بهدف القرآن الكريم وهو الغرض الديني، ولذلك جاء التصوير القرآني معبراً عن هذا المضمون لا يخرج عنه بحال من الأحوال.

وأسلوب التصوير في القصص القرآني من أهم الخصائص القرآنية ، فقد صور حال الأقوام الغابرة وكيف كانت عاقبتهم، كما أنه صور حال الأنبياء مع أقوامهم وطرق هدايتهم ، أضف إلى ذلك صور مختلفة لحال من حادَ عن طريق الهداية؛ مثل أصحاب الجنة وقصة الذين خرجوا من ديارهم.

ثانياً: اللغة

لقد حظيت اللغة العربية بطاقات تصويرية عظيمة، فكان لكل مفردة وقعها الخاص في النفس، فهي ليست كلمات مجردة من معانيها. " فالأصل في الكلمات في نشأتها الأولى كانت تدل على صور حسية ثم صارت مجردة من المحسوسات."[2] " والكلمات لدى الشاعر ليست مجرد ألفاظ صوتية ذات

---

(١) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ص٣٧-٣٨.

(٢) هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ط١، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م، ص٣٧٨.

دلالات صرفية أو نحوية أو معجمية، وإن كان الشاعر لا يغفل عن استخدامها، وإنما هي تجسيم حي للوجود، فاللغة الشعرية وجود له كيان وجسم."[1]

ثالثاً: الواقع

استمدت الصور القرآنية واقعيتها من خلال الأحداث التي رسمها القرآن الكريم بمنتهى الدقة والوضوح، وهذا يضفي صبغة واقعية على الصورة القرآنية ويبث فيها الحياة.

وقد جاءت صور القرآن الكريم من الواقع المحيط بالعرب آنذاك من جماد، كالجبال والعهن المنفوش، ومن النبات كأعجاز النخل الخاوية وهشيم المحتضر ، ومن الحيوان كالجمل والعنكبوت والفيل.

رابعاً: الخيال

لقد ساعدت الصورة القرآنية على تحفيز خيال المتلقي في رسم الصورة وكأنها ماثلة أمامه، وذلك بما تحمله اللغة من إيحاءات تصويرية، وما تتضمنه من مخزونات دلالية إضافة لعناصر الحركة واللون والصوت.

---

(١) الورقي، سعيد، لغة الشعر العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة – مصر، ١٩٩٨م، ص ٧٢.

خامساً: الإيقاع

يختلف مفهوم الإيقاع في القرآن الكريم عن الإيقاع الشعري؛ ففي القرآن يستمد مادته من مخارج الحروف وصفاتها ومن ثم من جرسها، وكيفية تكرارها في الآية القرآنية، وفضلاً عما تضفيه الفاصلة القرآنية من إيقاع موسيقي عالٍ، "و ما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، الوجه الذي يساق عليه بها ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ومناسبة اللون المنطوق بها هو أليق وأشبه بموضعه."(١)

ولما كان العرب يميلون إلى الشعر ويستحسنونه، فقد جاء القرآن الكريم، بما فيه من موسيقى تستميل قلوبهم وتجذب أسماعهم، فمعلوم أن الوليد بن المغيرة قد أثنى على حلاوته عند سماعه إياه دون أن يتمعن في معانيه، وهذا حال من لا يفقه العربية ويقبل على سماعه.

---

(١) الرافعي، مصطفى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة الإيمان للنشر، ١٩٩٧م، ص ١٨٥.

" فليس بخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما نخرجه فيه مداً وغنّة أو ليناً."(١)

"لكل صفة من صفات الحروف صوت، وأصوات الحروف المختلفة تنزل منزلة النبرات الموسيقية، وتحدث جمالاً توقيعياً في نفس القارئ والسامع، كما تحدث انفعالاً نفسياً ينتج عن تنويع الصوت."(٢) وقد تنبه سيد قطب إلى ضرورة ربط الأصوات بدلالاتها في تفسيره لآيات القرآن الكريم،ففي قوله تعالى: "﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٢] فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها وفي جرس ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾خاصة، وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل ببطء لنهايتها، وتتلو حكاية هود كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨] فتحس أن كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدون إليه وهم نافرون."(٣)

(١) الرافعي، مصطفى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٨٣-١٨٤.
(٢) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص ١٨.
(٣) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ص ٩٢.

" وإننا نجد أن الإيقاع الموسيقي يتفاوت في السياق القرآني، حسبما يتطلب النص ويفرضه الجو وتهيمن الفكرة، فهو أحياناً سريع واجف، وأحياناً ناعمٌ واعد، وفي أحيانٍ أخرى مضطرب صاخب".[1]

سادساً: العاطفة

أهم ما يميز الصورة القرآنية تلك العاطفة الدينية التي تثيرها في نفس المتلقي، فهي ليست صوراً جامدة خالية من المشاعر والأحاسيس، بل هي صور حية تستمد حيويتها من القرآن الكريم. وفي هذا تأكيد أن العاطفة في القرآن لم تنبع فقط من شخصيات القصص القرآني وتعبر عنهم بقدر ما لمست مشاعر ووجدان القارئ؛ إذ أصبحت ذات وجهين، "فكل كلمة شحنة من المعاني والعواطف والانفعالات، ويختلف معناها باختلاف استعمالاتها وأوضاعها داخل البناء الفني."[2] ولما كان الهدف الأساسي للقصص القرآني هدفاً دينياً بحتاً، كان من الطبيعي أن تثير هذه المشاهد في المتلقي ضروباً من الانفعال والاندماج الذي يدفعه إلى الالتزام بالمضمون، فالصورة القرآنية ليست صورة جوفاء وإنما لها وقع عند المتلقي، " فمقياس الصورة الأدبية هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة، والصورة هي العبارة الخارجية

---

(١) سلطان، ناديا، التصوير بالكلمات، دار إشبيلية، ص ٢٠٠ .

(٢) نافع، عبد الفتاح، الصورة في شعر بشار بن برد، ص ٨٢.

للحالة الداخلية وهذا هو مقياسها الأصيل وكل ما نصفها به من جمال."(1)

الصورة في القصص القرآني

لقد تقدم الحديث عن الصورة وما تضمنته من عناصر اللغة والخيال والإيقاع والعاطفة، وستتحدث هنا عن الصورة في القصص القرآني، ونعني بها كل جملة قرآنية ساعدت على رسم مشهد أو لوحة فنية في قصة قرآنية، موظفين في ذلك عناصر اللغة من أصوات، ودلالات، وموسيقى، وحركة، ولون، كي تغدو الصورة القرآنية مشهداً نابضاً بالحياة.

وتشكل دعوة الأنبياء أقوامَهم مشاهدَ غنية بالمفارقات في تشكيل الصور الحسية المبنية على التضاد الحركي، ونلمس ذلك في مشهد دعوة نوح - عليه السلام - الذي يصور التعارض الحركي الواضح بين نداء دعوته وصد وإعراض قومه عنه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ٤-١٤].

---

(١) الشايب، أحمد، أصول النقد الأدبي، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، ١٩٦٠م، ص٢٤٩-٢٥٠.

يتضمن هذا المشهد صوراً حركية وسمعية، فالدعوة بطبيعة الحال تفترض الإنصات والتجمع الذي ينتج عن الحركة الإنسانية المعهودة والانفعال الذي ينتج عن تعقل الفرد المنصت لكلام نوح عليه السلام، لكن المفارقة هنا تتجلى في موقف قوم نوح، حيث رفض الجمع الدعوة برد فعل حركي ألا وهو وضع أصابعهم في آذانهم احتقاراً لما يسمعون، والأصابع هنا علاقة بعض من كل؛ أي إن الذي دخل فوهة الأذن ليس الإصبع كاملاً بل البنان، وإنما ذكر الإصبع على سبيل التهويل لشدة رفضهم لقبول الحقّ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد فقط بل يتعداه إلى تغطية جميع منافذ أجسادهم وإغلاقها ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ حيث " تبرز لنا هذه اللوحة فئة من الناس لهم وجوه رجال وأجساد أطفال، إنه رسم ساخر لهذه الفئة التي تتصرف بسذاجة وحماقة، كالأطفال المعاندين، فهم يضعون أصابعهم في آذانهم ويسترون وجوههم ورؤوسهم بثيابهم رغبةً في ألّا يتسرب الصوت إليهم، وفي هذه الصورة تهكم لاذع واستهزاء بأسلوب فريد."[١]

ونلحظ أن إصرار نوح في دعوته يقابله إصرار قومه في رفضهم لهذه الدعوة، والأمر الذي يدعو للدهشة والغرابة أن هدف نوح - عليه السلام - من دعوته أن يغفر الله لهم ويهديهم، لكنهم عاندوا واستكبروا.

واللافت في هذه الآيات الكريمة شيوع حرف الراء في ثناياها وفي

---

(١) سلطان، ناديا، التصوير بالكلمات، ص ٦٦ .

فاصلتها القرآنية، ولحرف الراء دلالته الأكيدة في تكرار الفعل، فنوح - عليه السلام - تكررت دعوته لقومه في أحوال كثيرة في السر والجهر والليل والنهار، فالراء: "صوت مكرر لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في النطق بها كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثة لتتكون الراء العربية."[1]

وهنا مشهد آخر من مشاهد استكبار الأقوام وعنادهم لأنبيائهم، فإبراهيم - عليه السلام - بعد تحطيمه أصنام قومه يقرر قومه مجتمعين إنزال أشد عقوبة به وهي الإحراق، لكن الله سبحانه وتعالى يرد كيدهم ويأمر النار أن تفارق وظيفتها الأصيلة وهي الحرق لتغدو برداً وسلاماً.

﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ - ٩٨].

ولما ابتدأت الآية بالقول ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا ﴾ لزم أن يسبق القول عزماً وإرادة، أي حديث مع الذات ولكن بما أن هذه الإرادة تتعلق بفعل وهدف جماعي لزم أيضاً أن يخرج الحديث من داخل الذات إلى خارجها، ومن ذلك نلحظ أن عنصر الصوت لم يتمثل فجأة، بل عن تفكير وإلمام وتخطيط، وفي فعل (ابنوا) له، نجد أن الحركة المنظمة ظاهرة التي تلاها إشعال النار المرتبطة

---

(١) أنيس، ابراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٦٦.

بعنصر اللون؛ الأحمر والبنفجسي ويتبعها فعل الإلقاء المتمثل باللفظ والإرادة والحركة الفعلية، فإرادة قومه انقلبت إلى الضد تماماً، فرد الله كيدهم فأصبحوا هم الأسفلين.

إن توالي فاء العطف يعطي إيحاء وتصويراً لسرعة الحركة في المشهد، وفي المقابل سرعة رد الكيد على أصحابه.

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ – ٧٠] ويدل الفعل ﴿حَرِّقُوهُ﴾، على شدة غيظهم وحقدهم، ونلمس في الوقت ذاته قوة الله وإعزازه لنبيه وخليله؛ إذ نادى النار وأمرها أن تصير برداً وسلاماً على إبراهيم - عليه السلام- وقد استجابت النار لأمر ربها، وهذا ملحوظ في حذف الألف من ياء النداء.

وترتسم في مخيلة المتلقي أثناء قراءته للآيات صورتان: صورة بصرية لمشهد النار المشتعلة وهي تستعر في اشتعالها وتأُجُجِها، وصورة سمعية لمشهد تتعالى فيه صيحات القوم مطالبة بحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام، وتكمن المفارقة في عدم فاعلية النار وتحولها إلى برد وسلام، ولك أن تتخيل ردة فعل القوم التي تحولت من صيحات متعالية إلى صمت مطبق تملأه الدهشة.

وتبدو عناية الله سبحانه وتعالى برسله ونصره لهم واضحةً في مشاهد كثيرة من القصص القرآني، فهذا موسى الرضيع تلقيه أمه بوحي من الله في

اليم فترعاه العناية الإلهية إلى أن يصل إلى بيت عدوه، والمفارقة هنا أن آل فرعون التقطوه ليكون لهم ولداً وسنداً، ولكنه غدا عدواً وحزناً بتقدير الله تعالى.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٧ – ٨].

يصور هذا المشهد الذي يلفّه التوتر والقلق فعل إلقاء الأم وليدها في اليم، ويسرع القرآن الكريم في سرد المشهد ليصل بنا إلى فعل التقاطه من قبل آل فرعون، وهذا من جماليات القصص القرآني الذي يسمح لخيال المتلقي أن يرسم صوراً جمة، فمثلاً هل كان البحر الذي احتضن موسى بحراً هادئاً أم مائجاً؟ وما مقدار الوقت الذي أمضاه هذا الرضيع وهو يسير في رحلته؟.

وفي موضع آخر يصور القرآن الكريم القوة في إلقاء موسى في اليم في لفظة ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ التي تستدعي إلى الذهن السرعة في التنفيذ والقوة في الإلقاء.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٨ – ٣٩].

واللافت في هذا المشهد سرعة توالي الأحداث التي يربط بينها حرف العطف الفاء، الذي يفيد التعقيب دون مهلة، وكأنك تشعر أن الزمن الذي قضاه هذا الطفل زمن قصير.

ويقابل مشهد نجاة موسى الرضيع مشهد غرق فرعون، ويرسم القرآن الكريم لغرق فرعون وجنوده صورة مخيفة، فالبحر هنا ليس البحر المتعارف عليه وإنما هو بحر من نوع آخر، فينقسم البحر إلى نصفين يتخللهما ممر نجاة لموسى وقومه.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وفي هذه الآية تختلف صورة اليم عن صورته في الآية السابقة؛ إذ أصبح مكان هلاك لا نجاة كما حصل مع سيدنا موسى - عليه السلام - وهنا نستشعر طاعة اليم لله تعالى؛ إذ تحول بأمره عز وجل أداة حركية تساعد في الانتقام من فرعون وجنوده، فقد فارق رِفقه الذي كان مع سيدنا موسى - عليه السلام - ليتحول إلى بحر هائج.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يتبين بوضوح الإيقاع الذي يضفيه تكرار حرفي الهاء والميم (منهم، فأغرقناهم، بأنهم) كأن الهاء المتبوعة بالميم ترسم مشهداً يصور غرق فرعون وجنوده، فالهاء بمخرجها الحلقي والميم الشفوية ترسم صورة للبحر الواسع الذي انطبق عليهم، كما نلحظ توالي الهمزة في (أغرقناهم، وبأنهم) فالهمزة من أشق الحروف وأعسرها حين النطق، فيحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق[1] وهذا ما صوّره المشهد.

(١) أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، ص٢٢.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧ – ٧٩].

وفي هذه الآية نلمس صورة حركية ففعل الإسراء يتطلب التأهب والتحرك على مهل في الليل، وصورة بصرية تتجلى في اللجوء إلى البحر ليلاً؛ إذ يأخذ لون العتمة، وهذا ما سيجعل التصرف حذراً خشية الانكشاف من آل فرعون، لكن فرعون كشفهم وبعث بجنوده وراءهم، وهذه صورة أخرى حركية. وهنا يتحول اليم إلى أداة عذاب وهلاك يغشى فرعون وجنوده ويغرقهم، وبهذا يكون فرعون ضل قومه وما هدى.

ولعل في تجاور لفظتي البحر ويَبَسَ مفارقة كبرى، فكيف يكون الطريق في البحر يابساً، وهذا ما يحفز الخيال لرسم هذه الصورة.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ – ٦٧].

وثمة في بداية هذه الآية مفارقة واضحة عندما أمر الله عز وجل نبيه موسى - عليه السلام - بضرب البحر العظيم بعصا أقرب ما تكون في تصورنا أنها شيء ضئيل وصغير ولا يقارن بالبحر، فالصورة حركية تحولية من بحر كبير متماسك إلى فرقين يفصل بينهما ممر، ولشدة عظمة هذا الشق شبهه

الله بالشيء الجامد الصلب (الجبل) وليس بالماء الذي يتصف بالسيولة، ومما لا شك فيه أن البحر لم يبق على حاله بعد انشقاقه بل عاد إلى ما كان عليه، لكن هذه المرة وفي جوفه فرعون وجنوده، ولقد أثارت هذه الصورة عاطفة دينية بما تمثله من بيان عظيم قدرة الله، وأنه عز وجل قادر على إهلاك من طغى وتجبر وظلم.

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

وتظهر هنا صورة سمعية، فها هي صيحات فرعون واستغاثاته عندما أدركه الغرق معلنة إيمانه برب بني إسرائيل، وتكمن المفارقة هنا في إيمانه المتأخر الذي لا جدوى منه.

وفي القصة ذاتها هناك مشهد آخر يضم موسى والسحرة الذين جلبهم فرعون من أرجاء مختلفة ليبرهن على أن موسى عليه السلام ليس إلا ساحرا.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣ – ١٢٠].

يصوّر هذا المشهد الصراع بين الحق والباطل، متمثلاً بموسى وفرعون وسحرته، فبدأ السحرة بإلقاء عصيهم التي خيل للناس أنها ثعابين حقيقية مما أثار خوفهم، ولكن عصا موسى سرعان ما تحولت إلى ثعبان حقيقي والتهمت بقية العصي.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ – ٧٠].

وفي هذه الآيات تجسدت صورة العصا بشكل حسي فهي تسعى، وهذا يعطي لوناً من الحركة والفاعلية، وثمة وصف لشعور موسى عليه السلام الذي استوطن الخوف قلبه، ولعل للفظة (تلقف) دلالتها اللغوية التي تشير إلى سرعة الحركة. ونجد أن الكلمة مناسبة جداً لحركة إبراز قوى الحق في وجه الباطل فيما تثيره في النفس من إحساس بالقوة والسرعة والقدرة لله عز وجل، والصورة هنا سمعية حركية؛ إذ طلب فرعون من جنوده حشد السحرة، وذلك من تخيل مشهد الناس المتجمهرين حول العرض، وحركة العصي؛ إذ سقطت على الأرض تتلوى كأنها الأفاعي، وحركة عصا موسى التي انقلبت بقدرة الله إلى أفعى حقيقية تلتهم العصي المتناثرة.

وتشكلت المفارقة هنا في أن هدف فرعون من حشد السحرة تكذيب

موسى عليه السلام ودعوته، فانقلب موقفهم من الضد إلى الضد؛ من مؤيدين لفرعون إلى مؤيدين لموسى عليه السلام.

وننتقل هنا إلى مشهد آخر من مشاهد القصص القرآني تتمثل فيه صورة حركية بصرية في خروج قارون على قومه بزينته.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٩ – ٨٣].

ونستطيع تصور مشهد خروج قارون على قومه في زينته متكبراً ومستعلياً، وهذا ما نلمسه في حرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء والفوقية التي كان يشعر بها، أضف إلى ذلك حرف الجر (في) الذي يفيد تماهي هذا الطاغية وكأنه أصبح جزءًا ماديًا من زينته. ونلحظ في هذا المشهد تضافر الصورة الحركية المتمثلة بخروج قارون على قومه، وصورة بصرية متمثلة بالزينة.

ومما لا شك فيه أن طريقة خروج قارون على قومه جعلتهم ينشدّون

بأبصارهم وأذهانهم نحو زينته وبهرجته الواضحة لهم والجاذبة لأمنياتهم واستشعارهم لزينة الحياة والمال والجاه والسلطة، وتنقلب الصورة في هذا المشهد من علو واستكبار إلى خسف يصرفون نظرهم عنه ولا يتمنون أن يكونوا مكانه ويملكون ما يملكه، وهنا نصل إلى أوْج المفارقة.

وفيما يلي عرض لمشاهد عذاب الأقوام الغابرة، مثل قوم صالح وشعيب ولوط.

فهؤلاء قوم صالح قد حقّ عليهم العذاب بعد تكذيبهم لنبي الله.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨ – ٧٩].

ترسم هذه الآية صورة حركية لقوم صالح ولجوئهم العبثي إلى مكان يهيئ لهم الأمان، لكن لا مفر من عقاب الله فعلياً، فالمكان أمام قدرة الله يفارق وظيفته التي كان يقدمها دائما ألا وهي الأمان والحماية، وفي الآية الثانية نلمس نبرة الإنذار بقرب وقوع العقاب الذي يسبقه التنبيه؛ أي الرسالة الإلهية، ودليل ذلك حذف الياء من المنادى (يَٰقَوْمِ) والاستعاضة عنها بالكسرة.

نرى هذا المشهد قد تكرر مع أقوام أخرى، كقوم شعيب.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤ – ٩٥].

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ – ٦٨].

وقد تجسدت قوة الله عز وجل في الصيحة؛ إذ لمسنا أن عقابهم كان بوساطة صيحة لا ترى ولا تُبصر، لكن أثرها ملموس ومؤثر فيهم؛ أي العقاب الإلهي، فهذه صورة سمعية نشعر بعظمها دون تبين مادتها وماهيتها والوجه الذي كانت عليه. وأثرها إهلاكهم في بيوتهم كما كان حال قوم ثمود من قبلهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣].

وتطالعنا صورة حركية أخرى من مشاهد العذاب، وفي هذه المرة مشهد إهلاك قوم شعيب، فالحركة هنا سريعة مما تؤدي إلى انقلاب كامل للصورة وتغير في حالها، فالفعل الماضي (أمطرنا) يفيد التحقق لا التهديد بعقاب، ومما يؤدي إلى فزع قوم شعيب وتخبطهم عشوائيتهم وتضاربهم دون وجهة آمنة يعرفونها ويتجهون إليها، والمطر؛ أي التساقط العلوي قد يحد من هذه الحركة ويعيقها لعدم قدرة القوم على تفاديها.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ – ٧].

وهنا نلمس صورة حركية واضحة حيث إن الريح أحاطت بقوم عاد واقتلعتهم من أرضهم وكانت عقاباً لهم، والمفارقة هنا بين صورتين؛ صورة القوم قبل مجيء الريح وبعد نزولها بهم، فانتقلوا بذلك من الحياة والحركة إلى السكون والثبات.

وبعد هذا العرض لمشاهد عذاب الأقوام الغابرة ننتقل إلى مشهد قصصي آخر تنوعت فيه الصور من حركية وسمعية وبصرية، وذلك في قصة أصحاب الجنة.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم: ١٧ – ٣٢].

يرسم هذا المشهد لوحة لإخوة اتفقوا على حرمان الفقراء من جنتهم وهذا إعراض عن الخير صريح، وفي هذا المشهد تتضافر الصور البصرية والسمعية والحركية، فتبدأ القصة بصورة سمعية تتعالى فيها أصوات الإخوة

التي يلفها القسم الواضح في الآية ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، ويتبعه التوكيد على حرمان الفقراء ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤] تتلوها صورة حركية لا نستطيع الإلمام بحقيقتها وهي عذاب الله، لكننا نستطيع تلمس أثرها بعد ذلك، وهنا تتضح صورة بصرية نتبين من خلالها تحول الجنة الخضراء اليانعة إلى سواد قاتم.

وتبرز الصورة الحركية في مشهد الإخوة الغادين نحو جنتهم، فنستطيع تخيل حركتهم المسرعة وخفوت أصواتهم المقصود.

وتتجلّى المفارقة في هذا المشهد؛ إذ إن الإخوة لم يتعرفوا على جنتهم بعد احتراقها، فهم الذين أصروا على حرمان الفقراء فأصبحوا هم المحرومين، ويكشف حرف الجر (على) نفسيتهم وما يشعرون به من إحاطة بخيراتها وثمرها ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ [القلم: ٢] وتمكنهم من حرمان الفقراء من جنتهم ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

واللافت للنظر في هذه الآيات الكريمة أن فاصلتها القرآنية انتهت بميم ونون وهما الحرفان الأكثر شيوعا في الفاصلة القرآنية، والأكثر مناسبةً للتنغيم الموسيقي، وفي إيقاعهما تبدو نبرة الحزن والندم اللامتناهي من قبل الإخوة وذلك في مثل (ضالون) و(محرومون).

وتبدو مفارقة الموت والحياة واضحة بكل تجلياتها في قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

تصور هذه الآية الكريمة مشهداً متكاملاً للحياة والموت نابضاً بالحركة عن قوم خرجوا من بيوتهم وديارهم خوفاً من الموت وهم كثر، فبالرغم من كثرتهم إلا أن خوفهم وعدم إيمانهم دفعهم للخروج من ديارهم معتقدين أن بإمكانهم الهرب من قدرهم فأماتهم الله ثم أحياهم؛ ليعلموا أن قدر الله لا مفر منه وأنهم مهما بلغوا من الكثرة والقوة لا يغني عنهم من الله شيئاً، وخوفهم من الموت كان سبباً في موتهم، وتظهر قمة المفارقة هنا في أن الخوف من الشيء قد يكون سبباً في حصوله " فمشهد الألوف المؤلفة الحذرة من الموت المتلفتة من الذعر يليه مشهد الموت المطبق في لحظة ومن خلال كلمة: (موتوا) كل هذا الحذر، وهذه المحاولة كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة: (موتوا). ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة وضلالة المنهج، كما يلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل عند الله. (ثم أحياهم) هكذا بلا تفصيل للوسيلة."[1]

ويعرض لنا هذا المشهد صورةً بصرية بتوظيف الفعل (ألم تر) الذي يلمح إلى الرؤية البصرية، وإن لم يكن الأمر مشاهداً إلا أننا نستطيع تخيله بكل يسر، فهذه جموع غفيرة مؤلفة من الألوف خرجت من ديارها بحثاً عن الحياة

---

(١) الطيبي، عكاشة، قصص القرآن في ظلال القرآن، ص ٢٠٦.

وهرباً من الموت، ولك أن ترسم في مخيلتك صورة حركية تتمثل بحركتهم الزاحفة المتربصة الخائفة، لكن قدرة الله لا يحدها شيء فقال الله لهم: (موتوا) هكذا بكلمة واحدة، فتنتقل الصورة من الحركة إلى الثبات والجمود. إنه الموت. ثم أحياهم فانتقلوا بذلك من الموت إلى الحياة والحركة كما كانوا.

ونختتم حديثنا عن الصورة القرآنية بقصة أصحاب الفيل التي وردت في سورة هي سورة الفيل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١ – ٥].

تعرض لنا هذه القصة مشهداً مصوراً لعاقبة أصحاب الفيل. ويبدأ المشهد القصصي بالاستفهام التقريري متبوعاً بفعل مضارع مجزوم بـ (لم)؛ فهذه القصة التي وقعت أحداثها منذ زمن بعيد تقص الأحداث وكأنها ماثلة أمامنا ، ولا نغفل ما لاسم الاستفهام من دور في شحذ مخيلة المتلقي، فبمقدوره أن يتخيل ما عاقبة أصحاب الفيل الذين هموا بهدم الكعبة. ولعل تكرار الاستفهام متبوعاً بلم والفعل المضارع في الآية الثانية له أثره في النفس؛ إذ يخلق نوعاً من الإيقاع الموسيقي.

وفي الآية الثالثة يأتي الفعل ماضياً (أرسل) في دلالته اللغوية المحدودة، التي تدل على قصدية الفعل وتخصيصه، فالله سبحانه وتعالى أرسل هذه الطيور

لهدف محدد وهو إهلاك أصحاب الفيل ، وتفيد لفظة (عليهم) بما توحيه من علو وإحاطة، فالمتلقي يستطيع أن يرسم بخياله صورة لهذه الطيور المحلقة فوق الرؤوس، وهذا التحليق لا يترك لهم طريقاً لينفذوا من خلاله، فعقاب الله واقع لا محالة.

وفي الآية الرابعة يأتي الفعل مضارعاً ملائماً لوصف الحدث فهذه جماعات الطير ترمي الحجارة، وهي ليست أية حجارة؛ إنها حجارة من سجيل. وتأتي الآية الخامسة مصورة سرعة العقاب بتوظيف الفاء التي تدل على التعقيب دون مهلة فالأمر جلل وهو هدم الكعبة والتعدي على البيت الحرام. وفي هذه الآية تحوّل واضح لهذا الجيش الضخم؛ جيش الفيلة، فأصبح في لحظات كالعصف المأكول، ويالها من صورة مؤثرة، فالفيلة التي تمتاز بضخامتها وقوتها تبيدها الطيور تلك المخلوقات الضعيفة والوديعة بقدرة الله وتحولها إلى جثث مسحوقة وكأنها ورق الشجر المتفتت.

فالمشهد ينقل لنا صورتين؛ صورة الجيش العظيم الذي لا يهزم، وصورة الطير الذي أباد هذا الجيش وجعله مقطَّع الأوصال، دلالة على شدة القتل.

واللافت في هذه الآيات شيوع حرف اللام في ثنايا الآية وفي فاصلتها القرآنية، فقد تكرر هذا الحرف ثلاث عشرة مرة، كما أن الفاصلة انتهت بلام مسبوقة بياء في الآيات جميعها، ماعدا الآية الأخيرة التي شكلت النهاية الحاسمة مصوّرة شدة العقاب.

أما حرف الميم فقد تكرر تسع مرات، وكانت أربع منها تدل على الجمع فالجيش عظيم بعدده، والميم كما هو معلوم حرف شفوي وهو من حروف الغنة التي تزيد من الإيقاع الموسيقي.

أما الفاء؛ ذلك الحرف الشفوي، فقد تكرر ست مرات ولعل وروده في الآية الأولى ثلاث مرات يدل على شدة التوتر، فالفيلة تخرج أصواتاً مرعبة مخيفة، ولحرف الياء مهمته في التنغيم، فقد ورد إحدى عشرة مرة موزعاً بين ثنايا الآيات وفواصلها.

ونستطيع القول إن هذه القصة القرآنية قد شكلت في مجملها صورة قرآنية بصرية نابضة بالحركة واللون والصوت، واستطاعت هذه الصورة أن توضح قمة المفارقة بين صورة الحياة والقوة التي كان عليها مشهد الفيلة ومشهد الموت الذي انتهت به أحداث القصة، فمن الجبروت والعظمة إلى الضعف والهوان والسكون المطبق، والعجز المتناهي لتقرير مصير النفس وتغلُّب إرادة الله عز وجل على إرادة الإنسان الجاحد.

الفصل الرابع

المفارقة في قصة يوسف عليه السلام

بين يدي السورة

سورة يوسف من السور المكية التي نزلت بطلب من معاصري الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، واستغرقت القصة ثمانياً وتسعين آية. ولهذه القصة خصوصية تمتاز بها عن سائر القصص القرآني؛ فلقد نزلت دفعة واحدة في سورة بأكملها سميت باسمه: يوسف، وهذا الأمر لم يكن لنبي غيره، " وقد ذُكر اسمه مرة في سورة الأنعام ضمن ذكر أسماء مجموعة من الأنبياء الذين جاءوا من ذرية إبراهيم، وذُكر اسمه مرة في سورة غافر وذلك في قصة (مؤمن آل فرعون) أثناء دفاع ذلك الرجل عن موسى - عليه السلام - ووقوفه في وجه فرعون، حيث ذَكَّر قومه بيوسف - عليه السلام - الذي حكمهم فترة من الزمن."(١)

وقد وصفت قصة يوسف أنها أحسن القصص، في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] واختلف العلماء في شرح لفظة (أحسن)، فمنهم من يقول: إن التفضيل هنا واقع بين القصة كما رواها القرآن الكريم والقصة كما وردت في العهد القديم، ومنهم من أشار إلى أن هذه القصة أحسن القصص لما

(١) الخالدي، صلاح، مع قصص السابقين في القرآن، ط٢، دار القلم، دمشق - سوريا، ١٩٩٦م، ص٧٥.

فيها من تنوع شخوص وتعدد أمكنة وأزمنة وتزاحم العبر والحكم والفوائد، ومنهم من يشير إلى أن الحسن في هذه القصة يعود إلى جمال الأسلوب وتعدد طرائق عرض المشاهد، أضف إلى ذلك عذوبة الإيقاع الذي لا يخلو من نبرة حزن وألم، ومنهم من يرى أن السبب في الحسن النهاية السعيدة التي حظيت بها شخصيات القصة، وهذا كله حق؛ فالقصة تصور حياة نبي كريم من سنوات صباه الأولى إلى بلوغه مبلغ الرجال، كاشفة بذلك عن قيم إنسانية وأخلاقية ودينية، فهي لا تصور يوسف بطلاً وإنما تجسد القيم الأخلاقية من عفة وأمانة وصدق.

يقول الإمام النيسابوري: " ووجه حسنها اشتمالها على الغرائب والعجائب والنكت والعبر، وأن الصبر مفتاح الفرج وأن ما قضى الله كائن لا محالة لا يرده كيد كائد ولا حسد حاسد."[1]

" إن القصص القرآني هو أحسن القصص لأنه قصص حقيقي، واقعي، قصص هادف وبنّاء وهو أحسن القصص في حُسن ألفاظه وروعة أسلوبه ورفعة وسمو مقاصده ودقة وجلال معانيه، وهو أحسن القصص لأنه نزل من عند أحكم الحاكمين... ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أنه ليس في القرآن شيء أفضل من شيء، وليس هناك قصة أحسن من قصة، وإنما لكل قصة

---

(١) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيورت – لبنان، ١٤١٦هـ ص٥٦.

أسلوبها وطريقتها وسياقها ومقاصدها، والقرآن كلام الله - عز وجل - وهو على درجة واحدة من الحسن والقوة والروعة والرفعة والتناسق والمواكبة لكل زمانٍ ومكان، وقصة يوسف - عليه السلام - من أحسن القصص؛ لأنها جزء من القصص القرآني، وهي من أحسن القصص لما يتعلق بها من عبر وعظات ولكثرة ما عالجته من مقاصد وموضوعات."[1]

ولعل بداية سورة يوسف بالأحرف المقطعة (الر) تدل على نصف كلمة الرؤيا، وقد تضمنت القصة أربع رؤى وتأويلاتها إذ " يعتمد النص القرآني في سورة يوسف على الرؤى في تطور الحدث اعتماداً لافتاً، ولعلّ القارئ الكريم يعرف أن الرؤيا تستطيع أن تسهم إسهاماً بالغاً في تطور الحدث وفي تصوره المستقبلي، ولعله يعرف أيضاً أن الحدث يمكن أن يتقدم ويتطور في السرد من خلال الرسائل والاعترافات والمذكرات والكوابيس والأحلام والحوار وغير ذلك."[2] فتبدأ أحداث القصة برؤيا يوسف وتنتهي بتأويلها مروراً بأحداث متتالية كل منها يفضي إلى الآخر.

فنرى أنَّ غيرة إخوته منه أدّت بهم إلى وضعه في الجبّ، وهذا الحدث بدوره أدّى إلى أن يلتقطه السيّارة ويبيعوه لعزيز مصر، وهناك تُفتن به امرأة العزيز، ويُودع في السجن إبعاداً له ويخرج من السجن رغبةً من الملك ويُصبح

---

(١) الشرقاوي، أحمد، المرأة في القصص القرآني، ط٢، دار السلام، ٢٠٠٣م، ص٢٦١.

(٢) الحطيني، يوسف، ملامح السرد القرآني، ص٥٩.

وزيراً لاقتصاد مصر، فهذه الأحداث المترابطة من جهة، والمتناقضة من جهةٍ أخرى تدلُّ على عظمة الله وقدرته، وأنه القادر على تصريف أمور عباده.

" ويوسف - عليه السلام - يكيد له إخوته، ولكن القدر يسير بالأحداث في اتجاه معاكس، فتحفظه العناية من التردي في الجب ومن الفتنة بالإغراء ومن الهلاك في السجن، لتبوئه عرش الملك وتكشف نوايا إخوته وغلبة القدر فيما كادوا له." (١)

" وهذا العرض الممتد الجامع لقصة يوسف من شأنه أن يلفتنا إلى الإعجاز المبين في النظم القرآني، ذلك الإعجاز الذي تتجلى آياته فيما يستولي على قارئ القصة أو المستمع إليها من روعة الجلال وسطوته ومن يقظة الوجدان ونشوته، على امتداد العرض وتعدد المشاهد، دون أن يفقد الشعور وحدته، ودون أن يجد المتلقي لأحداث القصة مجالاً للتحرك خارج مسارها."(٢)

ولقد اختارت الباحثة دراسة قصة يوسف - عليه السلام - دراسة نصية؛ لما اشتملت عليه من عناصر القصة الفنية من شخوص وزمان ومكان وأحداث وعقدة وحل وحوار، وبما امتازت به من دقة في الوصف سواء أكان ذلك وصفاً للشخصيات أو الأماكن أو الأحداث. وعلاوة على ذلك فإن

---

(١) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة، ص٤٠٩.

(٢) الخطيب، عبد الكريم، قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص٤٦-٤٧.

المفارقة شكلت جزءاً أصيلاً في بنية القصة.

وستوقف عند أهم المحطات التي كان لها أكبر الأثر في سير الأحداث وتأزمها ونموها، موظفين في ذلك آليات المفارقة للكشف عن جماليات القصة.

رؤيا يوسف

كان ليعقوب - عليه السلام - اثنا عشر ولداً ولكن كان أقربهم إلى قلبه وأكثرهم حظوةً بحبه يوسفُ - عليه السلام - وأخوه الذي يصغره سناً وهذا طبيعي؛ فالأصغر دوماً هو المُحاط بالعناية والاهتمام أكثر من إخوته الكبار، أضف إلى ذلك أنَّ يعقوب - عليه السلام - ببصيرته النافذة كان يتوسم في هذا الطفل أن يكون الوارث للنبوة.

يبدأ المشهد بقصّ يوسف الطفل على أبيه مناماً رآه وعجب منه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٤] "وما داموا قد سجدوا فعبَّر عنهم بصيغة سجود العقلاء، وهم ليسوا عاقلين لك أنت، ولكن عاقلين عن ربهم "[١] وهنا يسند فعل السجود للجمادات الذي هو من لوازم الإنسان، وهذا الانزياح التركيبي يضفي على

(١) الشعراوي، محمد، قصص الأنبياء والمرسلين، ط١، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م، ص١٣٨ .

النص قوة بتحطيم ما هو مألوف.

وتتضمن رؤيا يوسف - عليه السلام - مفارقة صارخة، فكيف لإنسان أن يرى الكواكب والشمس والقمر في وقت واحد، وليس هذا فحسب وإنما يراها في هيئة السجود له،" ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجاز لأننا جميعاً نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشيء العجيب في هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معاً. " [1] وفي الآية ما يدل على أنه رأى هذه الأجرام السماوية واستطاع أن يحصي عددها، ثم بعد ذلك رآها تسجد له [2].

وعلى الرغم من أن الحلم جاء منسجماً مع مخيلة الطفل الذي يخلع على الجمادات صفات إنسانية، إلا أن هذا الحلم أدهش يوسف وجعله يتلهف لقصّ رؤياه على أبيه حتى كأنك تسمع نبرة يوسف من وراء الكلمات وهو يخاطب أباه، فهي نبرة تشي بالفرح والخوف، وهي النبرة ذاتها التي يردّ بها يعقوب على ابنه.

فقد استخدم يوسف - عليه السلام - التوكيد (إنّي) فضلاً عن تكرار الفعل (رأيت) لما له من تقرير فعل المشاهدة، وأن رؤياه تلك كانت على وجه

---

(١) الشعراوي، محمد، قصص الأنبياء دروس وعبر، دار القلم، بيروت – لبنان، ص١٣٧ .

(٢) انظر: الشعراوي، محمد، قصص الأنبياء دروس وعبر، ص١٣٨ .

الحقيقة في منامه لا محض خيال.

ونعلم من الآية الكريمة أنّ الإخوة لم يكونوا في هذا المشهد، لقول يعقوب - عليه السلام -لابنه: ألا يخبر إخوته بهذه الرؤيا ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]، ويعقوب النبي يعرف تماماً مشاعر الغيرة والحسد التي تستولي على نفوس أبنائه تجاه يوسف، " فالله سبحانه وتعالى قال: (فيكيدوا لك) ولم يقل (فيكيدوك)؛ إذ إنّ (يكيدوك) أن يفعلوا بك شرّاً، أما (فيكيدوا لك) أي أنهم سيفعلونها شراً من جهتهم ولكنها ستكون خيراً لك ولمصلحتك."[١] وجاء تكرار لفظة (كيد) مؤكدة لنوازع الشر في نفوس الإخوة في المرة الأولى بصيغة المضارع التي تفيد الاستمرارية والديمومة (فيكيدوا) أما في المرة الثانية جاء الكيد بعمومه نكرة (كيداً) للدلالة على الوسائل والطرق الكثيرة التي قد يتبعها الإخوة للتخلص من يوسف.

كما أن يعقوب - عليه السلام - يدرك معنى الرؤيا التي رآها ولده ويستبشر بها خيراً، فتنتابه عاطفتان؛ الأولى خوفه على يوسف من كيد إخوته، والثانية الفرح والسرور بمستقبل يوسف الذي ينتظره ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف: ٦].

---

(١) انظر الشعراوي، محمد، قصص الأنبياء والمرسلين، ص١٣٩.

كيد الإخوة

لقد كاد الإخوة ليوسف دون ذنب اقترفه ذلك الطفل الصغير، فيقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧] ويرفع القرآن الكريم الستار عن مشهد تآمر إخوة يوسف عليه، فهو وأخوه الأحب والأقرب إلى أبيهم، منهم، وفي نظرهم أن هذا هو الضلال بعينه، فهم عصبة، دلالة على الكثرة والقوة أما يوسف وأخوه فقلة وضعفاء لصغر سنهم وهذا أدعى لحب الأب لأبنائه الصغار، ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف: ٨] وقولهم (إنَّ أبانا لَفي ضلالٍ مُبين) يتناقض مع حبهم لأبيهم.

وبالرغم من عدم معرفتهم برؤيا يوسف إلا أنهم كادوا له واستدرجوا أباهم ليقبل أن يأخذوه معهم ويحققوا رغبتهم في التخلص منه، فالإخوة يعرفون أنهم مقدمون على فعل خاطئ وهو قتلهم ليوسف، ويقررون التوبة بعد ذلك: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩] " ونلحظ أن جرس الآيتين شديد ويبرز فيهما حرف القاف بشكل واضح ليجسد جريمة القتل التي تدبر، ويبرز كذلك من الحروف ذات الجرس القوي حرف الطاء: (اطرحوه، يلتقطه..)"[١].

---

(١) نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، ط١، دار الفرقان، عمان – الأردن، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، ص ١٢٠.

وبعد ما وضعوا الحجة التي يستندون عليها لتسويغ ما سيقومون بفعله، يتداولون الرأي في الاحتمالات الممكنة للتخلص من يوسف، فأحدهم يقترح القتل والآخر النفي والإقصاء، أما الأخير فقد كان رأيه الأقرب إلى الصواب في نظر البقية وهو أن يلقوه في غيابة الجب لتلتقطه بعد ذلك القافلة المارة من تلك الطريق، قال تعالى على لسان الإخوة: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠].

والجميل أن القرآن الكريم يصف شعور يعقوب -عليه السلام- تجاه أبنائه على لسانهم، فنحن نعلم هنا أنه ما كان ليأمنهم على يوسف، ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ [يوسف: ١١].

وهنا صاحب المفارقة كما هو واضح الإخوة المتآمرون والضحية هو سيدنا يعقوب - عليه السلام - وتبدأ جملة المفارقة التي وضعها الأبناء أمامه، فهم يتظاهرون بمحبة أخيهم الصغير ويريدون أن يخرج معهم للّعب واللّهو.

ويؤكدون هذا الأمر بمجموعة من التوكيدات، فيوظفون (اللام) و(إنّ) اللتين هما من حروف التوكيد ليبرهنوا على صدق قولهم الذي يعني الضد تماماً، ثم إن توظيفهم لمفرداتٍ من مثل (يرتع) و(يلعب) تشير إلى اهتمامهم ورعايتهم لطفولة أخيهم البريئة وهو ما يتناقض ونواياهم التي تجنح نحو القتل أو الإبعاد. ويبرز أمامنا مشهد واسع ممتد للعب واللهو وتعلو فيه أصوات الضحكات، يقابله مشهد الجب الضيق الذي سيقبع فيه يوسف

وحيداً دون حراك.

ويبادرون أباهم بسؤالٍ يعرفون إجابته حتماً، فيجيبهم بإجابةٍ غريبة ربما كانت إلهاماً ووحياً من الله، فقد ذكر لهم أمرين: الأول أنه سيحزن على فراق يوسف وهذا الذي حدث تماماً، والثاني أنه أعطاهم مبرراً جاهزاً ليقدموه له بعد التخلص من يوسف. وانظر دقة قول الله سبحانه وتعالى على لسان يعقوب (أن تذهبوا به) ولم يقل (أن يذهب معكم) لظنه أنه سيذهب بلا عودة، وتأتي كلمة (غافلون) بما تحمله من معاني الانشغال والإهمال وعدم تحمل المسؤولية، ليؤكد حالهم بجملة اسمية تدل على الثبات والاستقرار ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣].

وإذا عدنا إلى مشهد تآمر الإخوة وقولهم (نحن عصبة) نجد هذا القول يتكرر في إقناعهم لأبيهم أن يوسف لن يصيبه أيُّ مكروه فهم عصبة. ويؤكدون الأمر كعادتهم بجملة (إنا إذاً لخاسرون) التي يقصدون ضدها تماماً وكأنك تسمعهم يقولون(إنا إذاً لفائزون)﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١٤]، وتتجلى المفارقة هنا في أن الهاجس الوحيد الذي كان يعقوب متخوفاً منه هو الذئب، وهو المخرج ذاته الذي أراد إخوة يوسف أن يسوغوا به جريمتهم.

وفي قبوله لرغبة أبنائه باصطحاب أخيهم يوسف مع يقينه أنّ نواياهم سيئة مفارقةٌ كبرى، وتفسير ذلك يعود إلى تسليمه الكامل بقضاء الله وقدره،

فهاتان العاطفتان المتناقضتان في ظاهرهما، متفقتان في جوهرهما، فحزنه وخوفه على يوسف لم يمنعه من التوكل على الله؛ ليقينه أن الله سيحفظه له وأنه يقدر له الخير، فكيف كان ليوسف أن يصل إلى سدة الحكم دون كيد إخوته له، ورؤيا يوسف هي التي جعلت لديه الحكمة الكافية لإدراك ما ستؤول له الأحداث.

وبعد نجاحهم في التخلص من يوسف رجع الإخوة إلى أبيهم متظاهرين بالحزن المفرط وأخفوا سعادتهم الغامرة في نجاح خطتهم ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] والمد في (جاؤوا) يدل على المدة الطويلة التي قضاها الإخوة في انتظار العشاء، فهم خرجوا في الصباح وعادوا في المساء.

فالظلام كما هو معروف يعطي شيئاً من الخفاء والستر، الذي يتفق وظاهر قولهم وحقيقة أمرهم، فهم يقولون شيئاً ويتصرفون خلافه. " وإن استخدام القرآن الكريم للجملة الفعلية (يبكون) لوصف حال الإخوة، يدل على اصطناعهم فعل البكاء، ولو كان البكاء حقيقياً لقال عنهم القرآن (باكين). "(١)

وهنا مفارقة تظهر من خلال التعارض والتضاد في قول الإخوة عندما أرادوا إقناع أبيهم بضرورة اصطحاب يوسف ليلعب ويرتع، وقولهم عندما رجعوا بعد إتمام جريمتهم، ومحاولة وضع مبرر أكل الذئب ليوسف بأنهم ذهبوا ليستبقوا وتركوه عند أمتعتهم ليحفظها لهم، وهنا تبادل للأدوار؛

---

(١) الشعراوي، محمد، قصص الأنبياء والمرسلين، ص١٣٧.

فالكبار هم الذين يلعبون والصغير هو الذي يحافظ على أمتعتهم ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] ولعل قولهم في ختام الآية ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] يكشف عن خفايا نفوسهم التي جبلت على الكذب والخداع.

وقد استعانوا بالقميص الملطخ بالدم ليبرهنوا على صدق ما ساقوه من كذب في أكل الذئب ليوسفَ، ولم يعلموا أن هذا الدليل المادي الحسي سينقلب ضدهم. فكيف لذئب أن يأكل إنساناً دون أن يمزق قميصه، أضف إلى ذلك أن الذئب من صفاته الافتراس الذي يعني أن يبقي شيئاً من جسم الضحية.

ومع محاولتهم إقناع يعقوب - عليه السلام - إلا أنه لم يصدق ما جاؤوا به، فيعقوب النبي يدرك تماماً أن هذه ليست هي الحقيقة فيفوض أمره لله ويستعين به أن يرزقه الصبر، وليس أي صبر، الصبر الجميل الذي ليس فيه أي شكوى أو اعتراض على حكمته تعالى ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

يوسف في الجبّ

وها هو يوسف الطفل ملقى في بئر موحش بارد بلا قميص يفتقد دفء حضن أبيه الذي اعتاده، مرتقباً مجهولاً لا يدري ماذا سيفعل به، لتأتي سيّارة ويتحول من طفل مدلل إلى عبد يباع ويشترى.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ١٩ – ٢٠].

وقد شكّل الجب هذا المكان المغلق المظلم بداية انطلاق ليوسف، فمن الانغلاق إلى الانفتاح، وكل ذلك بتدبير الله عزّ وجل.

يوسف في بيت العزيز

ومن حياة الرق والعبودية ينتقل يوسف إلى قصر عزيز مصر، ليصبح مقرباً له ولزوجه.ويطلب زوجُها منها أن تُحسن إقامة يوسف عندها وتتخذه ولداً ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١]، ويبدو أن امرأة العزيز امتثلت لأمره واعتنت به واتخذته ولداً حتى كبُر واشتد عودُه.

" كانت منَّة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سبباً لمحنته، وذلك أن امرأة العزيز (وزير الملك) رأت بعين الأنثى جمال يوسف فخفق قلبها واضطرمت مشاعرها ، ولما كان هو فتاها ورهين إشارتها هان عليها ما ينتابها من الشوق والحب"[١]، وهنا تنقلب الأحوال وتصبح هذه السيدة التي احتضنت يوسف الطفل الصغير تتغير نظرتُها ليوسف الشاب الذي حباه الله

---

(١) طبّاره،عفيف، اليهود في القرآن، ص١٤٨ .

جمالًا لا نظير له، فتنظر له نظرة العاشقة التي لا يُطفئ ظمأها إلا الوصال الحسّي، فتبدأ هذه المرأة بحياكة شباكها باستخدام المكيدة، فصاحب المفارقة هنا امرأة العزيز والضحية يوسف -عليه السلام - الجاهل بما يُحاك حوله من مكائد.

لم ينشغل القرآن الكريم بتفصيل المغريات والغوايات التي حاولت امرأةُ العزيز أن تصل بها إلى قلب يوسف الشاب، ولكن بعد محاولات كثيرة لجأت إلى الحل الوحيد في نظرها وهو المواجهة والمُكاشفة عن مكنونات نفسها وهدفها. ويلخص القرآن الكريم الموقف بكلماتٍ قلائل تشفُّ عن عمق الفاجعة التي ألّمت بيوسف، ويظهر عنصر التوتر جلياً، إضافة إلى الخوف والقلق الذي يسيطر على المتلقي؛ إذ يشاطر الضحية هواجسها﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] وكلمة (راودته) وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لوناً بعد لون، ذاهبة إلى فن راجعة من فن لأن الكلمة مأخوذة من روادن الإبل في مشيتها تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها في حبها ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها."(١)

---

(١) انظر الرافعي، مصطفى، وحي القلم، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م، ص١١٥-١١٧.

ونلاحظ أن الآية الكريمة كنّت عن هذه المرأة بالاسم الموصول (التي) لقُبح فعلتها، "و(التي) هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنةً من كانت، فلم يبق على الحب ملكٌ ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى."[1] ولعل مجاورة الضمير المنفصل (هو) للاسم الموصول (التي) تدل على تلاشي الحواجز المادية بينهما، فهما في بيتٍ واحدٍ، وهذا أدعى لفعل الفاحشة.

" وإضافة يوسف إليها،وبأنه في بيتها إشارة إلى أنها ذات سلطان على يوسف الذي هو نزيل بيتها وربيب نعمتها ، وأن لها أن تأمر وعليه أن يطيع، فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها كان بسلطان جاهها، فكيف وبيديها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟ "[2].

وانظر أيضاً إلى فعل (وغلّقت) بتضعيف اللام الذي يشير إلى حرصها الشديد تحقيق هدفها وذلك في استجابة يوسف لرغبتها، ولعله يحمل في جوهره كثرة الأبواب التي أقفلتها، أضف إلى ذلك أن إغلاقها لهذه الأبواب كان مُحكماً، فقوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]، معناه أنها أغلقت باباً وراء باب، مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ، ولذلك فهي حريصة على أن تخفي ما ستفعل، وكونها غلّقت الأبواب دليل على أنها تريد إذا فُتح باب أن تنتبه فلا يفاجئها أحد.

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٥-١١٧.

(٢) الخطيب، عبد الكريم، قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص٧٥.

أمّا قولُها (هيت لك) فقد اختلف العلماء فيه؛ هل كان قولاً أم إشارةً منها ليوسف، ومهما يكن الأمر فالمعنى واحد تقصد به أن يُلبي يوسف رغبتها لكن موقف يوسف - عليه السلام - كان واضحاً مباشراً لا لُبس فيه وهو الإحجام، وقوله لها ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] والربُّ هنا كما نعلم بمعنى السيد، وقوله هذا يذكّرنا بما قاله العزيز لها ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [يوسف: ٢١] كأنه بهذا القول يريد أن ينبّه غفلتها ويرشدها إلى طريق الصواب، ويذكرها بضرورة المحافظة على عفتها والوفاء لزوجها.

ولم تتوقف امرأة العزيز عند هذا الحد، فلم يردعها قوله على الرغم من تأثيره الشديد المفترض، دلالة على التصميم المسبق الذي لا يرده رادّ، فقد همّت به والهمُّ هنا بمعنى محاولة الفعل، ولم يختلف العلماء في همِّها بيوسف ولكنّهم اختلفوا في همِّ يوسف بها، والأرجح الذي يتوافق مع سياق القرآن الكريم استحالة همّ يوسف ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فيجب الوقف هنا بعد جملة وهمت به، لأن المعنى قد اكتمل، والجملة الثانية نفهم منها أنه لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، ولأنه رأى برهان ربه والمقصود به الإيمان الصادق، انتفى وقوع الهمّ من جانبه.(١)

(١) انظر: نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، ص ٤٣٤.

يصور مشهد يوسف وامرأة العزيز صراعاً بين العفة والشهوة، فامرأة العزيز قامت بثلاثة أفعال وهي: تغليق الأبواب والمراودة وقولها هيت لك، وكان رد يوسف على تلك الأفعال الثلاثة بثلاث عبارات (معاذ الله) (إنه ربي أحسن مثواي) (إنه لا يفلح الظالمون).

وانظر إلى الجرس الموسيقي في كلمة (همّت) بالميم المشددة، ففي نطق هذا الحرف يكون الفم مغلقاً أشد ما يكون الإغلاق، وبالرغم من مجاورته لحرف الهاء الحلقي - والمسافة بين الهاء والميم كبيرة - إلا أنّ فيه انحباساً، وهذا يصور حالة يوسف - عليه السلام - فاتساع قصر العزيز لم يكن ليتسع ليوسف بل ضاق به.

ولك أن تلاحظ فرقاً في الصوت بين لفظتي (غلّقت) وهيت لك، فالأولى بما اشتملت عليه من التضعيف وحرف القاف الذي يدل على قوتها في تنفيذ ما عزمت عليه، والثانية في قولها (هيت) الذي يدل على الضعف واللين الأنثوي.

فالمشهد نابض بالحركة يلفه التوتر والقلق الذي يحس به المتلقي عند قراءته للنص القرآني، فبعد صد يوسف لها ومحاولته الهرب يندفع مسرعاً نحو الباب لفتحه، وهي بدورها تلهث وراءه لمنعه، وهذا التضاد في الحركة يخلق نوعاً آخر من المفارقة التي تبلغ ذروتها عند فتح الباب ورؤية العزيز واقفاً أمامهما ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ

أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥]، وهنا يبرز دهاء امرأة العزيز ومكرها؛ إذ ألقت بالتهمة على يوسف، فبادرت بسؤال عن مصير من أراد بأهلك سوءاً وذلك لتبعد شكوك زوجها عنها، ومبادرتها بسؤالٍ يفترض جواباً، فكأنها أرادت مهلةً من الوقت، وهي بذلك تريد أن ينشغل زوجها بالبحث عن إجابة، فأرادت أن تغلّق منافذ التفكير عند زوجها كما غلّقت الأبواب فأثبتت أمامه الذنب وأتبعته بالعقوبة وهذا من مكرها وسرعة بديهتها، ففي آية ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥] جاء " تنكير (سوءاً إلا أن يسجن) أي إلا سجن يعاقب به (أو عذاب أليم) موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة، وكان هذا القول مكراً وخداعاً لزوجها من وجوه:

أولاً: إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوؤه ويسوؤها.

ثانياً: أنها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعه مثلاً.

ثالثاً: تهديد يوسف وإنذاره ما يعلم به أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها "(١).

في المقابل يرد يوسف بكلماتٍ مقتضبة غايةً في الحزم والوضوح ﴿ قَالَ هِىَ

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦].

وها هي تثبت براءة يوسف بالدليل القاطع، فقد شهد شاهدٌ من أهلها أنه إذا كان القميص مشقوقاً من الخلف فستكون هي الطالبة له لا هو، وإذا كان القميص مشقوقاً من الأمام سيكون الطالب هو لا هي ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦ - ٢٧]؛ فالقميص هنا شكّل مدلولين: الأول تهمة امرأة العزيز له بفعل الفاحشة والثاني تبرئته من قبل الشاهد، وعلى إثر ذلك فقد طلب العزيز من امرأته أن تستغفر لذنبها، وطلب أيضاً من يوسف أن يبقي الأمر سراً ولا يذيعه حفاظاً على سمعته. ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٨ - ٢٩].

لكن أمراً كهذا سرعان ما ينتشر، ولاسيما في الطبقات المترفة بين نساء القصور اللواتي يقضين أوقاتهن في نشر الشائعات ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يوسف: ٣٠] فقد سمعت امرأة العزيز بما يُثار حولها واستعانت بكيدها ومكرها للإيقاع بهن ودفع اللوم عن نفسها، فهيأت لهنَّ مجلساً، وأعطت كل واحدةٍ منهن طعاماً وسكيناً، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ

لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]، " ومن المرجح أنها لم تفعل ذلك بنفسها، إلا أن إشرافها المباشر بلهفة وحرص جعل الأمر يبدو وكأنها هي التي (أعتدت) وهي التي آتت رغم كثرة الخدم في قصر كقصرها"[١].

وما كان ليوسف أن يعترض، وسرعان ما سالت الدماء فور دخول ذاك الملاك فائق الجمال مجلسهن، فها هي امرأة العزيز تبرهن للمرة الثانية شدة كيدها ودهائها بتركها أثراً حسياً لا يزول جزاء ما اقترفن في حقها.

" ولقد أسرع القرآن في عرضه للحظة الضعف البشري ليسلّط الأضواء على لحظة الإفاقة من سكرة الهوى ، ولأنه لم يشأ أن يجعل من ذلك معرضاً للجمال والإغراء حتى لا يوسّع دائرة الشّوق الجنسيّ أو يحصر أشواق الإنسان في تلك اللحظة العابرة، وللإنسان من الأشواق العليا ما يتّصل بصميم الكون والحياة "[٢].

وهنا تبلغ فرحة امرأة العزيز مبلغها عندما ترى أثر الصدمة عليهن وتعترف أمامهن أنها هي التي راودته عن نفسه، وتتوعده إذا لم يفعل ما تأمره به، فسيكون عقابه السجن أو ليكون من الصاغرين ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ

---

(١) الطراونة، سليمان، دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، ص ١٠٦.

(٢) نقرة، التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، ص٤٠٩.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢]،" ويدل تهديدها إياه على ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين عن صدّ زوجاتهم. " (١)، وتكمن قمة المفارقة في قصة يوسف وامرأة العزيز في تبادل الأدوار بينهما؛ فامرأة العزيز (السيدة) تتحول إلى أمَةٍ هدفها الفوز بحبِّ سيدها، ويوسف (العبد) يرفض طلب امرأة العزيز ويترفع عن هفواتها وسقطاتها، كما أنّ الطبيعة البشرية تأبى على الأنثى أن تبادر الرجل في حبها، فما ظنك بامرأةٍ تراود عبدها عن نفسه.

ولم يكن بيت العزيز بما فيه من اتساع وامتداد وترف ليأوي يوسف ويحميه من كيد الكائدين.

يوسف في السجن

ومع تيقن العزيز من براءة يوسف – عليه السلام - إلا أنه أودعه السجن ولم يحدد المدة التي سيمكث فيها هناك؛ وذلك لقطع ألسنة النسوة وأهل الطبقة المترفة ذات الجاه والمال حرصاً على سمعته.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ

---

(١) نقرة، تهامي، سيكولوجية القصة في القرآن،ص٤٠٤-٤٠٥ .

بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ [يوسف: ٣٣ – ٣٥].

إنّ القارئ يتعجب من طلب يوسف السجن بدلاً من فعله للفاحشة، وهذا حال من يعتصم بدين الله ويتوكل عليه، ونعلم بعد ذلك أن السجن كان فاتحة خير؛ ففيه يدعو إلى الله ويكون من المحسنين.

" وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الحزن والفرح، فأما الحزن فلأنه سجن ظلماً وما سينجم عن ذلك من سمعة سيئة عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وأما فرحه فلخروجه من بيت امرأة العزيز وابتعاده عن المكر والفتنة، ولكن السجن كان فاتحة خير له وربَّ محنة ضمنها منحة."[1] فالسجن أتاح له فرصة الدعوة إلى الله، فلو لم يدخل السجن لظل عبداً لا يملك من أمره شيئاً. فالسجن ظاهره شر محض لكن باطنه فيه الخير الكثير ليوسف، فهو الذي أوصله ليصبح عزيزاً في مصر.

ولعل السجن بمفهومه العام يوحي بالانغلاق ومحدودية المكان وتقييد الحرية، وما يصاحب ذلك من قهر وذل واستعباد، لكنه مع يوسف كان له شأن آخر، فقد اتسع السجن لدعوته وتحررت مشاعره وأحاسيسه من قيود بيت العزيز.

وفي هذا المكان المغلق يفتح الله على يوسف ويعبر الرؤى، وتكون هذه

---

(١) طبّاره، عفيف، اليهود في القرآن، ص١٥٢ .

أداة إنقاذه من السجن بعد أن عبّر رؤيا السجينين ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

وبعد مدة رؤيا الملك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف: ٤٣]، وفي رؤيا الملك تضاد وتعارض ظاهري وهذا ما شكل مفارقةً جعلت الملك يحتار في تفسيرها، فكيف تأكل البقرات بنات جنسها؟ وكيف تأكل العجاف السمان! لكن تأويل يوسف لهذه الرؤيا يرفع عنها الغموض والمفارقة؛ فإذا كانت البقرة السمينة ترمز إلى السنة الخيرة والبقرة الهزيلة ترمز إلى السنة المجدبة، عرفنا أن السنوات الخيرة يليها سنوات قحط، فكأن سنوات القحط ستأكل كل ما حصدوه في سنوات الخير، ولهذا رأى الملك في الرؤيا ذاتها سبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

والأمر الذي يدعو إلى المفارقة رفض يوسف الخروج من السجن بالرغم من طول انتظاره للحرية، إلا بعد تبرئته من التهمة التي ألصقت به وأدخل على إثرها السجن. ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠].

لقد شكل السجن مكاناً لحفظ يوسف من كيد النسوة. وكانت الحكمة الإلهية في نسيان صاحب السجن أن يذكره عند ربه ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا

ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢]، فقد خرج بعد تأويله رؤيا الملك، فلو لم يعلم الملك بمعرفة يوسف في الاقتصاد ورجاحة عقله وأمانته لما جعله على خزائن الأرض، وهذا ما مكنه أن يكيد لإخوته فيما بعد.

وخرج يوسف من السجن بعد صاحبيه وبعد بضع سنين، وكان في ذلك الخير له، فقد خرج ليصبح عزيزاً.

يوسف عزيز مصر

وبعد أن مكر إخوة يوسف له وأبعدوه عن أبيه، ينجيه الله تعالى بقدرته من الجبّ وامرأة العزيز والسجن، ويجعله وزيراً على خزائن مصر، وتمر السنوات ويأتي إخوة يوسف ليتزودوا بالميرة، فيعرفهم يوسف ولكنهم يجهلونه، وهذا عائدٌ إلى أن ملامح الإخوة لم تختلف كثيراً مقارنةً بملامح يوسف التي تبدلت تماماً مع مرور السنين الطوال. وفضلاً عن ذلك لم يخطر ببالهم أن يكون هذا الماثل أمامهم هو يوسف، وأن يكون عزيزاً في مصر ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨] وهنا تنعكس الأدوار؛ فيوسف الضحية فيما مضى يغدو صاحب المفارقة، وإخوته هم الضحية، ويبدأ في صنعه للمفارقة بسؤاله عن أخٍ لهم لم يحضروه معهم فيطلب منهم إحضاره في المرة القادمة، بعد أن أعطاهم ما طلبوا، ليضمن عودتهم إليه. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ

وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٥٩ – ٦١].

ونلاحظ استخدامهم للتوكيد للدلالة على قدرتهم لفعل ما يريدون (وإنّا لفاعلون) لأنهم فعلوا ذلك من قبل ونجحوا، ويراود الأبناء أباهم عن اصطحاب أخيهم تلبيةً لرغبة العزيز، لكن الشيخ الكبير يعقوب - عليه السلام – يتردد ولا يأمنهم عليه، كما يعبر عن ذلك صراحةً ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وإغراقاً في وضع الحيلة، كان قد أعاد يوسف - عليه السلام - بضاعتهم لهم التي قدموا بها، وهذه الحجة كانت كفيلةً بإقناع أبيهم بضرورة اصطحابه ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥] وتوكله على الله سبحانه وتعالى لم يمنعه من الأخذ بالأسباب، فأوصى بنيه أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة دفعاً للضرر المحتمل، ومع هذا فهو يعلم أن وصيته لا تدفع عنهم قضاء الله وقدره ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٧ – ٦٨].

وقد كان ليوسف ما أراد، فجاء إخوته مصطحبين أخاهم وتمكّن من

أخذ أخيه بعيداً عن مسامعهم، كاشفاً له هويته، ليساعده في إيقاع الحيلة بهم ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩].

ويبقى الإخوة (الضحية) على جهلهم بشخصية يوسف، وهذا يمكّنه من إتمام ما بدأ به، فيضع السقاية في رحل أخيه، وهدفه من ذلك أن يستبقيه عنده،وبعد شيوع خبر ضياع صواع الملك ودفاع إخوته عن أنفسهم يحاورهم بطريقة منطقية ويسألهم عن العقوبة التي ستكون من نصيب السارق، فيجيبونه بالعقوبة المتعارف عليها عندهم أن يُتخذ السارق عبداً ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٧٤ – ٧٥].

ثم يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه ويستخرجها من وعائه، وهنا تبلغ المفارقة ذروتها عندما يبررون جريمة أخيهم أن له أخاً سارقاً وهم لا يعلمون أن الشخص الماثل أمامهم هو يوسف﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧٧].

ورغم ذلك يحاول الإخوة أن يستدرّوا عطف يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم،﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨] لكن شخصية يوسف التي رسمها لإخوته فهو

المحسن، فكيف يرضى أن يأخذ أحداً غير الذي سرق؟ فيستسلم الإخوة ويرجعون إلى أبيهم عدا كبيرهم ليخبروه بما حدث.

ولعل المتأمل في أحداث القصة وموقف يعقوب - عليه السلام - مما يفعله أبناؤه يصاب بالدهشة والذهول لتسليم هذا الشيخ بقضاء الله والصبر على أحزانه المتوالية بفقد يوسف ثم فقد أخيه، لكن عندما نصنف الشخصيات وفقاً لثنائية العلم والجهل نستطيع تفسير موقف يعقوب -عليه السلام - من أبنائه، فهو الذي يعلم تأويل رؤيا ابنه يوسف وما ستؤول إليه الأحداث، وهو الذي يعلم بسرائر أبنائه، كما أنّه متيقن من فرج الله القريب بعودة يوسف وأخيه له، وهذا ما يظهر في قوله لأبنائه عند عودتهم دون أخيهم:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣].

والمفارقة هنا أن الأبناء كانوا على يقين تام أن الذئب لم يأكل يوسف، لكنهم أقنعوا أنفسهم بذلك، فبات مستحيلاً عليهم تصديق فكرة عودة يوسف وأنه ما زال حياً بعكس قناعة أبيهم ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ والأمر الذي يدعو إلى الدهشة أن يعقوب - عليه السلام - عندما فقد ابنه الثاني تأسف على فراق يوسف الذي فقده منذ سنواتٍ بعيدة، ولا يذكر ابنه الذي فقده حديثاً، وهذا يعود بنا إلى معرفته بتأويل رؤيا يوسف، لكن هذه المعرفة اليقينية لا تمنعه من الحزن وحث أبنائه

أن يبحثوا عن يوسف وأخيه.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٤ – ٨٦].

(تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً) فلما أتى سبحانه بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء لأنها أقل أدوات القسم استعمالاً، وأبعدها عن أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو أتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهي (تفتأ)، فإن الفعل تزال أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً من تفتأ، ثم أتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهي من جنسها في الغرابة توخياً لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف الألفاظ (حرضاً)، فاقتضى حسن الوضع من الألفاظ لتتعامل في الوضع وتتناسب في النظم.(١)

ونلحظ هنا أن القرآن الكريم أورد جملة من المفردات الغريبة لتتناسب مع حال يعقوب عليه السلام الذي ما زال يذكر ابنه يوسف بعد هذه السنوات الطويلة.

وتكرار حرف التاء في قول الله تعالى على لسان الإخوة (تالله تفتأ تذكر

---

(١) شرف ، حفني ، إعجاز القرآن البياني ، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة – مصر، ١٩٧٠م، ص ٢٢٠-٢٢١.

يوسف) يدل على غلاظة وقسوة قلوبهم، فمن الواضح أن التاء تتطلب جهداً في نطقها فهي حرف احتكاكي.

وقد جاءت كلمة (روح الله) مناسبة للجو الخانق الذي كان يحيط بيعقوب، وكأنه أحس باقتراب هبّات فرج الله.

ثم يطلب منهم العودة والبحث عن يوسف وأخيه ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وتبرز هنا صورة لمسية بما تضفيه لفظة تحسسوا من ظلال معبّرة، فيعقوب عليه السلام أصيب بالعمى وابيضّت عيناه، فيوظف كلمات تعبر عن حالته من مثل (تحسسوا) التي تحمل في جوهرها معنى الرفق والحرص.

ويدخل الإخوة على عزيز مصر شارحين له ما أصابهم من ضر وبؤس وشقاء، ويحضرون معهم بضاعة مزجاة ليتصدق عليهم بإرجاع أخيهم لهم، وهنا يكشف صاحب المفارقة (يوسف) حقيقة شخصيته وذلك باستدراجهم للتعرف عليه من خلال سؤاله لهم الذي أيقظ في ضمائرهم صورة يوسف التي اندثرت بمرور الوقت،﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩ – ٩٠] وتكمن المفارقة هنا أن الإخوة سرعان ما تعرفوا على يوسف رغم قناعتهم بموته.

لقد أحس يعقوب - عليه السلام - بقرب لقائه بيوسف قبل مجيء القافلة، ويصدق إحساسه ويأتي القميص ليكون دليل بشارة أن يوسف ما زال حياً، وتبدو صورة شمية في هذه الآية الكريمة؛ إذ إن يعقوب النبي يعلم ببصيرته أو ربما بوحي من الله قرب لقائه بيوسف، وذلك بشمه لرائحة يوسف ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٩٤ - ٩٦].

وتكمن المفارقة هنا أن الإخوة في المرتين هم الذين أحضروا القميص، فكأنهم بذلك يكشفون عن كذبهم الذي طالما حاولوا ستره؛ ففي المرة الأولى أحضروه ملطخاً بدم كذب دليلاً على صدق ما ساقوه من أكل الذئب ليوسف، وفي المرة الثانية جاءوا به معطراً برائحة يوسف دليلاً على أنه ما يزال حياً يرزق، وليس هذا فحسب وإنما هو عزيز مصر.

والقميص في حد ذاته شكل مدلولين ليعقوب الأب، الأول: الحزن المفرط على فراق يوسف، والثاني: الفرح الشديد بقرب لقائه.

تحقق الرؤيا

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى

﴿وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ – ١٠٠]، وها هو يعقوب - عليه السلام - يتوجه هو وبنوه إلى مصر لتتحقق رؤيا يوسف بعد سنوات طويلة من الغربة والوحدة والمعاناة.

وتظهر المفارقة في رؤيا يوسف أنها حصلت بمكان بسيط خشن العيش ولا أثر للتحضر فيه، وتتحقق الرؤيا في مصر المدينة التي عرفت بحضارتها وعظيم بنيانها وترف أهلها.

وتعود بنا الأحداث إلى بدايتها عندما تآمر الإخوة للتخلص من يوسف بطرحه أرضاً تصغيراً من شأنه ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩] وفي المقابل تصل الأحداث إلى تمكين يوسف وعلو شأنه وجعله وزيراً على خزائن الأرض. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦].

" ويلاحظ القارئ لهذه القصة الكريمة أن جميع الأماكن المغلقة قد فُتحت في النهاية، فمع كل إغلاق يأتي فرج وفتح:

- فالبئر التي ألقي فيها يوسف - عليه السلام - كانت مغلقة (بالمعنى الرمزي) وقد فتحها الله سبحانه عليه من خلال السيارة التي مرّت لتنتشل الماء من البئر.

- والبيت الذي تربّى فيه يوسف في مصر كان مغلقاً بل مغلّقاً (وغلّقت الأبواب)، غير أن حماية الله سبحانه وتعالى هيأت ليوسف من أمره مخرجاً.

- والسجن الذي كان فيه يوسف فتحه الله عليه بعد أمد، فخرج منه عزيزاً كريماً بريئاً طاهراً كما أحب وكما أحب له الله سبحانه وتعالى."(١)

لقد شكّل القميص بُعداً مفارقياً في قصة يوسف - عليه السلام - إذ كان له أهمية في تطور الأحداث ونموها؛ فالقميص من حيث مدلوله يقصد به الستر، وبإزالته يتضمن معنى الكشف والإبانة. ففي وروده للمرة الأولى كشف عن كذب إخوته في مقولتهم لأبيهم إن الذئب قد أكل يوسف، وأتوا بالقميص الملطخ بالدم دليلاً على صدق قولهم، ولكن كيف أكل الذئب يوسف دون أن يمزق قميصه. وفي الثانية كشف عن كذب امرأة العزيز فيما اتهمت به يوسف من ارتكابه للفاحشة، وفي الثالثة أبان حقيقة أن يوسف ما زال على قيد الحياة وكشف الغم والحزن عن أبيه؛ فالقميص الذي أرسله لأبيه المعطر برائحته الزكية كان عوضاً عن القميص الملطخ بدم كذب.

وكان لشيوع حرفي الغنة النون والميم أثره في خلق نوع من الإيقاع الموسيقي، الذي أضفى على السورة جوّاً من الرونق والجمال، أضف إلى ذلك شيوع حرف النون في الفاصلة القرآنية كان له وظيفة موسيقية في استكناه بواطن النفس البشرية واستكناه حقيقتها الداخلية، فقد ورد حرف النون تسع وستمائة وستين مرة، وحرف الميم أربع وخمسمائة وخمسين مرة وذلك وفقاً لأحكام التجويد، ومما زاد في غنى الإيقاع تكرار بعض الكلمات في الموضع

---

(١) الحطيني، يوسف، ملامح السرد القرآني، ص٦٣ .

ذاته، من مثل: (إن يسرق فقد سرق) و(وعاء أخيه واستخرجها من وعاء أخيه) و(همت به وهم بها) و(جزاؤه فهو جزاؤه).

اعتمدت القصة في بنيتها الفنية على صور متعددة من بصرية وسمعية وشمية وحركية ولمسية، مما أضفى عليها حيوية تجذب القارئ وتجعله يتخيل المشاهد وكأنها حاضرة أمامه.

والقارئ للسورة الكريمة يلاحظ شيوع لفظة (العلم) وغالباً ما تسند إلى الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما تخفي الصدور، أضف إلى ذلك شيوع لفظتي (المراودة) و(الكيد) اللتين شكلتا أساس القصة، وهذا يتضح في موقف الإخوة وامرأة العزيز تجاه يوسف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القصة بنيت في أساسها على المفارقة، فالهدف الأساس الذي دفع إخوة يوسف للتخلص منه هو كسب محبة أبيهم، إلا أن أباهم ازداد حباً ليوسف الغائب وثقة بعودته وازدادوا هم بعداً عنه.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج:

أولاً: إن مفهوم القصص القرآني يتوافق مع المعنى اللغوي الذي يعني تتبع الأثر، فهي أحداث ووقائع لم يعايشها الرسول عليه الصلاة والسلام، بل قصها الله سبحانه وتعالى عليه ليثبّت فؤاده ولتكون برهاناً على نبوته.

ثانياً: أنّ القصص القرآني تفرَّد بجملة من الخصائص الفنية والأغراض الدينية، جعلت منه قصّاً مغايراً عن أي قص بشري، فمبدعه هو الخالق.

ثالثاً: أننا نستطيع تقسيم القصص القرآني إلى أنواع متعددة وذلك وفقاً لطرق عرض القصة، فهناك قصة سردية وقصة حوادث وقصة حوارية.

رابعاً: أن المفارقة بوصفها أداة بلاغية أسلوبية حديثة صالحة للكشف عن جماليات القصص القرآني، لما تعطيه هذه الأداة من فهم أكبر وأعمق لمراد الخالق جلّت قدرته، وبما يمنحه هذا الأسلوب للمتلقي من آفاق رحبة للتفكر والتخيل والتصور، وما يوفره من تفجير إمكانات اللغة وما يستحضره من متع جمالية لا تنتهي.

خامساً: لقد شكل الحوار القصصي مادة غنية بنوعيه الداخلي والخارجي مع شيوع الحوار الخارجي أكثر من الداخلي، فوظيفة الحوار الخارجي تساعد على نمو الأحداث وتعقدها، أما الحوار الداخلي فتنحصر وظيفته في الكشف

عن باطن الشخصية القصصية.

سادساً: لقد كان للصورة بمفهومها الحديث كما توصلت إليه الدراسات الحديثة حضور، ولاسيما في تصوير مشاهد القصص، وأكثر ما تجلى ذلك في دعوة الأنبياء أقوامهم وما لاقوه من أصناف التعنت والعناد والاستكبار، أضف إلى ذلك مشاهد عذاب الأقوام الغابرة مثل قوم صالح وشعيب ولوط ومشاهد أخرى لنماذج بشرية ظنوا أنهم يملكون تقرير مصيرهم كقصة الذين خرجوا من ديارهم، ومشاهد أخرى لأصحاب الجنة وأصحاب الفيل.

سابعاً: تعد قصة يوسف من أكثر القصص القرآني غنى بالمفارقات، فنلمس فيها مفارقات لفظية وأخرى درامية، وهذا يرجع لطول القصة وتنوع شخوصها وأحداثها وتعاقب الأزمنة واختلاف الأماكن.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. إبراهيم، نبيلة، **فن القص في النظرية والتطبيق**، مكتبة الغريب، القاهرة- مصر.

٢. إسماعيل،طالب، **أساليب المحاورة في القرآن الكريم**، ط١، المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي، الأردن، ٢٠١٠م.

٣. الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي،ط١، دار القلم، دمشق-سوريا، ١٤١٢ هـ.

٤. أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.

٥. أنيس، إبراهيم، **موسيقى الشعر**.

٦. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ١٩٦٩م.

٧. الجرجاني، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي.

٨. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٩. حجازي، محمد، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٠. الحطيني، يوسف، **ملامح السرد القرآني**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ٢٠٠٩م.

١١. حفني، عبد الحليم، **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

١٢. خالد، عبد المرضي زكريا، **الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة - مصر، ١٩٩٧م.

١٣. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

١٤. الخالدي، صلاح، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، ط١، دار القلم، دمشق - سوريا، ١٩٩٨م.

١٥. الخالدي، صلاح، **مع قصص السابقين في القرآن**، ط٢، دار القلم، دمشق - سوريا، ١٩٩٦م.

١٦. الخطيب، عبد الكريم، **قصتا آدم ويوسف عليهما السلام**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٧. الخطيب، عبد الكريم، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

١٨. خلف الله، محمد أحمد، وخليل عبد الكريم، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ط٤، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار الغربي، ١٩٩٩م.

١٩. الدقور، سليمان، **القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهجه**، ط١، دار الفضيلة، عمّان – الأردن، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

٢٠. الرافعي، مصطفى، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مكتبة الإيمان للنشر، ١٩٩٧م.

٢١. الرافعي، مصطفى، **وحي القلم**، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م.

٢٢. الرباعي، عبد القادر، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، ط١، دار جرير، ٢٠٠٩م.

٢٣. الرباعي، عبد القادر، **صور من المفارقة في شعرعرار**، بحوث عربية مهداة إلى الدكتور محمود السمرة، دار المناهج، ١٩٩٦م.

٢٤. رضا، محمد رشيد بن علي، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٥. الزركشي، بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد منصور، مكتبة دار التراث، القاهرة - مصر.

٢٦. أبو زيد، علي إبراهيم، **الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي**، ط١، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٨١م.

٢٧. سالم، أحمد، **قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م.

٢٨. أبو ستيت، الشحات، **خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام**، ط١، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٩١م.

٢٩. السعدني، مصطفى، **البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث**، دار المعارف، الاسكندرية.

٣٠. سلطان، ناديا، **التصوير بالكلمات**، دار إشبيلية.

٣١. سليمان، خالد، **المفارقة والأدب**، دار الشروق، عمان - الأردن، ١٩٩٩م.

٣٢. شادي، محمد إبراهيم، **الصورة بين القدماء والمعاصرين**، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

٣٣. الشايب، أحمد، **أصول النقد الأدبي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، الطبعة السادسة، ١٩٦٠

٣٤. شبانة، ناصر، **المفارقة في الشعر العربي الحديث**، ط١، دار الفارس، الأردن، ٢٠٠٢م.

٣٥. شرف، حفني محمد، **إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة - مصر، ١٩٧٠م.

٣٦. الشرقاوي، أحمد، **المرأة في القصص القرآني**، ط٢، دار السلام، ٢٠٠٣م.

٣٧. الشعراوي، محمد، **قصص الأنبياء والمرسلين**، ط١، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م.

٣٨. الشعراوي، محمد، **قصص الأنبياء دروس وعبر**، دار القلم، بيروت.

٣٩. شلبي، محمود، **حياة آدم**، ط١، مكتبة القاهرة، مصر، ١٩٦٤م.

٤٠. الشهرزوري، يادكار لطيف، **جماليات التلقي في السرد القرآني**، دار الزمان، دمشق - سوريا، ط١، ٢٠١٠م.

٤١. الصائغ، عبد الإله، **الصورة الفنية معياراً**، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى ١٩٨٧

٤٢. صوالحة، أيمن، **المفارقة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث**، حمادة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١١م.

٤٣. طبّاره، عفيف، **اليهود في القرآن**، ط٩، دار العلم، بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.

٤٤. الطراونة، سليمان، **دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية**، ط١، عمان - الأردن، ١٩٩٢م.

٤٥. الطيبي، عكاشة، **قصص القرآن في ظلال القرآن**، ط١، دار اليوسف، ١٩٩٨م.

٤٦. ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

٤٧. عباس، إحسان، **فن الشعر**، دار بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٩

٤٨. عباس، فضل، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، دار الفرقان، عمان - الأردن، ١٩٨٧م.

٤٩. عبد الله، عدنان خالد، **النقد التطبيقي التحليلي**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٥٠. عبد ربه، السيد عبد الحافظ، **بحوث في قصص القرآن**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ١٩٧٢م.

٥١. العبد، محمد، **المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)**، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ط٢، ٢٠٠٦م.

٥٢. عتيق، عبد العزيز، **في النقد الأدبي**،دار النهضة، بيروت.

٥٣. العدوي، محمد خير، **معالم القصة في القرآن الكريم**.

٥٤. عساف، ساسين، **الصورة الشعرية ونماذجها في شعر أبي نواس**، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

٥٥. عسكر، السيد، **القصص القرآني إقناع وإبداع**، ط١، دار البشير، مصر، ٢٠٠٠م.

٥٦. العلاوي، نزيه، **الشخصيات القرآنية**، ط١، دار صفاء، عمان - الأردن، ٢٠٠٦م.

٥٧. العلوي، يحيى، **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، تحقيق عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧م.

٥٨. ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٩. فضل الله، محمد، **الحوار في القرآن**، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩م.

٦٠. قطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، ط٣، مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٦١. قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، ط١٨، دار الشروق، ٢٠٠٦م.

٦٢. قطب، محمد، **القصة في القرآن**، دار قباء، القاهرة - مصر، ٢٠٠١م.

٦٣. لويس، س.د، **الصورة الشعرية**، ط١، دار الرشيد، ١٩٨٢م.

٦٤. ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

٦٥. دي. سي. ميويك،موسوعة المصطلح النقدي **(المفارقة وصفاتها)**، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد - العراق، ١٩٨٧م.

٦٦. ناصف، مصطفى، **الصورة الأدبية**، ط٢، دار الأندلس، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.

٦٧. نافع، عبد الفتاح صالح، **الصورة في شعر بشار بن برد**، دار الفكر، عمان - الأردن، ١٩٨٣م.

٦٨. نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، ط١، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٩٦م.

٦٩. النحلاوي، عبد الرحمن، **التربية بالحوار**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

٧٠. نزال، فوز، **لغة الحوار في القرآن الكريم**، ط١، الجوهرة، عمان - الأردن، ٢٠٠٣م.

٧١. نقرة، التهامي، **سيكولوجية القصة في القرآن**، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٤م.

٧٢. نوفل، أحمد، **تفسير سورة القصص** (دراسة تحليلية موضوعية)، جمعية المحافظة على القرآن الكريم - مركز حراء القرآني.

٧٣. نوفل، أحمد، **سورة يوسف دراسة تحليلية**، ط١، دار الفرقان، عمان - الأردن، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٧٤. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٦ هـ.

٧٥. هلال، محمد غنيمي، **النقد الأدبي الحديث**، ط١، دار العودة- بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.

٧٦. الورقي، سعيد، **لغة الشعر العربي الحديث**، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٩٨م.

٧٧. يوسف، حسني عبد الجليل، **المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة - مصر، ط١، ٢٠٠١م.

٧٨. يونس، عيد سعد، **التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٦م.

الرسائل الجامعية

١. بدور، نسرين إبراهيم، **بنية السرد في القصص القرآني**، جامعة البعث، سوريا، ٢٠٠٧م.

٢. جابر، ناصر يوسف، **المفارقة في الشعر العربي الحديث محمود درويش، أمل دنقل، سعدي يوسف نموذجا**، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠م.

٣. الدقور، سليمان، **اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني**، (أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، ٢٠٠٥م.

٤. خليفة، أحمد داوود، **المفارقة في قصص زكريا تامر**، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م.

٥. المحمد، ألمى، **الصورة الفنية في القرآن الكريم**، دمشق،١٩٩٤ – ١٩٩٥.

٦. ملكاوي، بثينة محمود، **القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني**، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، ٢٠٠٠م.

الدوريات

١. الأمين، محمد سالم، **اللغة المفارقة في رواية شرف**، مجلة إبداع، العدد ٤، ١٩٩٩م.

٢. الرواشدة، سامح، **المفارقة في شعر أمل دنقل**، مجلة دراسات، مجلد ٢٢، عدد ٦.

٣. سليمان، خالد، **نظرية المفارقة**، مجلة أبحاث اليرموك، العدد ٢، ١٩٩١م.

٤. قاسم، سيزا، **المفارقة في القص العربي المعاصر**، مجلة فصول، القاهرة - مصر، العدد ٦٨، ٢٠٠٦م



فهرس الموضوعات

الفصل الثاني
المفارقة في الحوار القصصي القرآني

الفصل الثالث
المفارقة وبناء الصورة



منشورات وزارة الثقافة

سلسلة كتاب الشهر

رقم السلسلة	اســـم الكتـــاب	المـؤلـف	سنة الطبع
١.	دراسات في تاريخ الأردن الحديث	سليمان الموسى	١٩٩٩
٢.	روكس بن زائد العزيزي	د. عبد الله رشيد	١٩٩٩
٣.	عدي بن الرقاع العاملي : حياته وشعره	تحسين محمد الصلاح	١٩٩٩
٤.	أدب الأطفال في الأردن	أحمد المصلح	١٩٩٩
٥.	معجم أسماء الأدوات واللوازم في التراث العربي	نايف النوايسة	١٩٩٩
٦.	حسني فريز شاعراً وأديباً	عبد الله مسلم الكساسبة	٢٠٠٠
٧.	الفن التشكيلي الأردني	وزارة الثقافة	٢٠٠٠
٨.	الحركة الشعرية النسوية في فلسطين والأردن	د. أسامة شهاب	٢٠٠٠
٩.	في تحاليل المفاهيم	د. أنور الزعبي	٢٠٠٠
١٠.	نظرية التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد	د. نواف قوقزة	٢٠٠٠
١١.	محمود سيف الدين الإيراني : سيرته وأدبه	وزارة الثقافة	٢٠٠٠
١٢.	الرسالة والصورة : قضايا معاصرة في الإعلام	فاروق جرار	٢٠٠٢
١٣.	فضاءات سينمائية	يوسف يوسف	٢٠٠٢
١٤.	رسالة إلى ولدي " خالد "	يعقوب العودات	٢٠٠١
١٥.	خصوصية الإبداع النسوي	وزارة الثقافة	٢٠٠١
١٦.	الشعر في الأردن	وزارة الثقافة	٢٠٠١
١٧.	ترجمة الكاتب في آداب الصاحب	علي ذيب زايد	٢٠٠١
١٨.	التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية	د. وليد العناتي	٢٠٠١

١٩.	The Jordanian Novel	فهد سلامة	٢٠٠٢
٢٠.	Novels And Novelits From Jordan	نزيه أبو نضال	٢٠٠٢
٢١.	قضايا النهضة والتنوير	مجموعة باحثين	٢٠٠٢
٢٢.	القوس والوتر	د. حسين جمعة	٢٠٠٢
٢٣.	القصة القصيرة في فلسطين والأردن	د. محمد عبيد الله	٢٠٠١
٢٤.	شرح ديوان امرئ القيس لابي جعفر النحاس	د. عمر الفجاوي	٢٠٠٢
٢٥.	أبو هلال العسكري ناقداً	أمل المشايخ	٢٠٠٢
٢٦.	اللغة نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال	حسن سعيد الكرمي	٢٠٠٢
٢٧.	الأمواج : صفحات من رحلة الحياة	عبد المنعم الرفاعي	٢٠٠٢
٢٨.	مستقبل الثقافة العربية في عالم متغير (مابعد العولمة)	حسن العايد	٢٠٠٢
٢٩.	الأدب في الصحافة الأردنية	د. شكري حجي	٢٠٠٢
٣٠.	عيسى الناعوري : شطحات مع الآداب الأجنبية	تيسير النجار	٢٠٠٢
٣١.	أقنعة الراوي : دراسات في الخطاب الروائي العربي	د. إبراهيم خليل	٢٠٠٢
٣٢.	المجموعات القصصية السبع	محمود الريماوي	٢٠٠٢
٣٣.	في تحليل المفاهيم (٢)	د. أنور الزعبي	٢٠٠٢
٣٤.	الفضاء الروائي : الرواية في الأردن نموذجاً	د. عبد الرحيم مراشدة	٢٠٠٢
٣٥.	الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب	المهدي عيد الروايضة	٢٠٠٢
٣٦.	قراءات : مقالات ونصوص ثقافية	د. زياد الزعبي	٢٠٠٢
٣٧.	الاتجاهات النقدية عن شراح ديوان المتنبي القدماء	د. عدنان عبيدات	٢٠٠٢
٣٨.	المفضل في شرح المفصل (باب الحروف)	د. يوسف الحشكي	٢٠٠٢
٣٩.	شعر الملك عبد الله بن الحسين الأول (جزءان)	خلف إبراهيم النوافلة	٢٠٠٢
٤٠.	الصحافة في شرقي الأردن	شفيق عبيدات	٢٠٠٢
٤١.	المحاولات التمثيلية في فلسطين وفي الأردن	د. عبد الرحمن ياغي	٢٠٠٢

٤٢.	أوراق بيضاء : الكتاب الأول من تاريخ المسرح الأردني	عادل لافي	٢٠٠٢
٤٣.	هامش النص الشعري	عز الدين المناصرة	٢٠٠٢
٤٤.	محمود درويش شاعر المرايا المتحولة	د. علي الشرع	٢٠٠٢
٤٥.	حركة التعريب في الأردن	عبد الرؤوف خريوش	٢٠٠٢
٤٦.	إحسان عباس بين التراث والنقد الأدبي	د. عباس عبد الحليم عباس	٢٠٠٢
٤٧.	الرواية في الأردن : فضاءات ومرتكزات	د. نبيل حداد	٢٠٠٢
٤٨.	سداسية الأيام الستة : الرؤية والدلالة والبنية الفنية	د. حسني محمود	٢٠٠٢
٤٩.	السجل المصور للتراث الشعبي الكركي	فراس دميثان المجالي	٢٠٠٢
٥٠.	الشوبك : الأرض والإنسان	محمد اسماعيل الرواشدة	٢٠٠٢
٥١.	أوهام معاصره : دراسة نقدية في مصنفات الشعر العربي	إبراهيم السامرائي	٢٠٠٢
٥٢.	غالب هلسا وبيلوغرافيا مصادره الكتابية	نزيه أبو نضال	٢٠٠٢
٥٣.	الصورة الشعرية في شعر الشماخ	محمد علي ذياب	٢٠٠٣
٥٤.	عزلة الفراغ : فنون تشكيلية	محمد العامري	٢٠٠٣
٥٥.	الأعمال الكاملة : نديم الملاح (١-٣)	زياد ابو لبن / سمير اليوسف	٢٠٠٣ - ٢٠٠٥
٥٦.	شاشات العتمة . . . شاشات النور	ناجح حسن	٢٠٠٣
٥٧.	عروش الروح	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٣
٥٨.	الأعمال الشعرية	خالد محادين	٢٠٠٥
٥٩.	الببلوغرافيا الأردنية الفلسطينية في القرن العشرين	محمود الأخرس	٢٠٠٥

	١٩٠٠-١٩٧٨(١-٢)		
.٦٠	الإعلام والمجتمع : دراسات في الإعلام الأردني والعربي والدولي	د. عصام الموسى	٢٠٠٣
.٦١	تشكيل السياسات الثقافية	مجموعة باحثين	٢٠٠٣
.٦٢	أربع روايات	جمال ناجي	٢٠٠٣
.٦٣	من الظواهر اللغوية في الشعر العربي المعاصر	د. فريد العمري	٢٠٠٤
.٦٤	الثقافة والتنمية	وزارة الثقافة	٢٠٠٥
.٦٥	استلهام التاريخ في المسرح الأردني	محمود اسماعيل بدر	٢٠٠٣
.٦٦	مصارع العشاق لجعفر السراج	د. بسمة الدجاني	٢٠٠٤
.٦٧	قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية (١-٣)	روكس بن زائد العزيزي	٢٠٠٤
.٦٨	التراث الشعبي الأردني	وزارة الثقافة	٢٠٠٥
.٦٩	المدينة في الشعر العربي الحديث	عبد الله رضوان	٢٠٠٣
.٧٠	كراسات في السينما العالمية	حسن الدباس	٢٠٠٣
.٧١	القلق في الثقافة	محمد سعيد الجنيدي	٢٠٠٣
.٧٢	شعر المرأة في الأردن	باسم الخطايبة	٢٠٠٣
.٧٣	ذاكرة المدينة (٢)	محمد رفيع	٢٠٠٣
.٧٤	الحس القومي في شعر حيدر محمود	أروى محمد ربيع	٢٠٠٥
.٧٥	Islam and Contomporary Issuos	عز الدين الخطيب التميمي	٢٠٠٤
.٧٦	خليل السكاكيني : حياته مواقفه وآثاره	يوسف أيوب حداد	٢٠٠٤
.٧٧	تعريب الألفاظ والمصطلحات	د. سميح أبو مغلي	٢٠٠٣
.٧٨	رحلات في الديار المقدسة (١-٢)	فيصل أديب	٢٠٠٥

٧٩.	التقنيات العلمية لفن الخزف	د. علي حيدر	٢٠٠٣
٨٠.	ملحمة يفغيني أو نيغين الكسندر بوشكين	عبد الهادي الدهيسات	٢٠٠٣
٨١.	لواء البتراء : الأرض والإنسان	محمود محمد النوافلة	٢٠٠٤
٨٢.	البار اسايكولوجي – الإدراك المتفوق	د. كمال خليل النجار	٢٠٠٤
٨٣.	السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن	سناء شعلان	٢٠٠٤
٨٤.	الحسين بن علي ملكاً في المنفى	بكر خازر المجالي	٢٠٠٤
٨٥.	الكرك عبر العصور : تاريخ الكرك القديم	د. جمعة محمود كريم	٢٠٠٤
٨٦.	الكرك عبر العصور : تاريخ الكرك في العصور الإسلامية	د. أحمد عبد الله الحسّو	٢٠٠٤
٨٧.	الكرك عبر العصور : تاريخ الكرك الحديث	د. محمد سالم الطراونة	٢٠٠٤
٨٨.	أطباء من التاريخ : الأسرار وتقويم الأدلة	د. محمود الزعبي	٢٠٠٥
٨٩.	سيكولوجية المرأة العاملة في الأردن	د.حنان جميل هاسا	٢٠٠٤
٩٠.	أعمال المساحة في شرق الأردن ج١-٢	د.أحمد عويدي العبادي	٢٠٠٥
٩١.	التعليقة على المقرب	د.جميل عويضة	٢٠٠٥
٩٢.	جولات في النقد الأدبي	د. عبد الرحمن ياغي	٢٠٠٥
٩٣.	جدل الإبداع والثقافة	عزمي خميس	٢٠٠٤
٩٤.	خوذة كنعان والتوراة	يوسف يوسف	٢٠٠٥
٩٥.	القصة النسوية المعاصرة في الأردن وفلسطين	د.أسامة شهاب	٢٠٠٥
٩٦.	عام على الرحيل : سنوية مؤنس الرزاز	رابطة الكتّاب الأردنيين	٢٠٠٤
٩٧.	الشعر الحديث في الأردن	أحمد المصلح	٢٠٠٥
٩٨.	تراث البدو القضائي	د. محمد أبو حسان	٢٠٠٥

٩٩.	العبور إلى الحاضرة	د. سليمان الأزرعي	٢٠٠٥
١٠٠.	مرايا وظلال : قراءات ومراجعات نقدية	د. إبراهيم الكوفحي	٢٠٠٥
١٠١.	التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية	د. مريم جبر	٢٠٠٥
١٠٢.	عمان كما يراها المثقون	رابطة الكتاب الأردنيين	٢٠٠٥
١٠٣.	يوسف العظم شاعراً	محمد الحمايدة	٢٠٠٥
١٠٤.	أقحوان على ضفاف النهر (الرحلة والقيثارة)	يوسف حمدان	٢٠٠٥
١٠٥.	الاغتراب والمقاومة في الرواية العربية في فلسطين والأردن	د. حسن عليان	٢٠٠٥
١٠٦.	نهاد الموسى وتعليم اللغة العربية : رؤى منهجية	د. وليد العناتي	٢٠٠٥
١٠٧.	أخبار ووثائق أردنية في صحيفة فلسطين ١٩٣٣-١٩٤٦ – الجزء الثاني	د. جورج طريف / د. زهير غنايم	٢٠٠٥
١٠٨.	مؤنس الرزاز / عبد الرحمن منيف	إعداد : رابطة الكتّاب الأردنيين	٢٠٠٥
١٠٩.	فصول في نقد النقد	د. إبراهيم خليل	٢٠٠٥
١١٠.	سجل الإعلامات الصادرة من حاكم الحقوق المنفرد بدمشق – سجل الكرك	د. محمد خريسات/ د. جورج طريف	٢٠٠٥
١١١.	بلاغة السرد : قراءات مختارة في القصة القصيرة الأردنية	د. محمد عبيد الله	٢٠٠٥
١١٢.	الخطاب الصوفي في الشعر المعاصر	د. راشد عيسى	٢٠٠٦
١١٣.	البنية الزمنية في روايات غالب هلسا من النظرية إلى التطبيق	د. محمد القواسمة	٢٠٠٦
١١٤.	أقانيم الوجود : المتلقي والنص والمعنى	د. خالد الجبر	٢٠٠٦
١١٥.	James Joyce and Munis al Razzaz	د. ريما مقطش	٢٠٠٦

١١٦.	الأعمال الكاملة : الروايات القصيرة	د. أحمد الزعبي	٢٠٠٦
١١٧.	القائد الديناميكي المنتج الفعّال : الخدمة ، الواجب ، المسؤولية	شوكت سعدون	٢٠٠٦
١١٨.	أ. د. هاشم ياغي / أ. د. عبدالرحمن ياغي	إعداد : رابطة الكتّاب الأردنيين	٢٠٠٦
١١٩.	نوافذ مأهولة : متتاليات نصية حول أعمال فنية	خالد الحمزة	٢٠٠٦
١٢٠.	عام على الرحيل : إحسان عباس	وزارة الثقافة	٢٠٠٦
١٢١.	شرح المغني في النحو	تحقيق : د. علي الشوملي	٢٠٠٧
١٢٢.	Poetic creativity in arabic literary criticism	د. جهاد المجالي	٢٠٠٧
١٢٣.	مستقبل الثقافة والفنون (مؤتمر الثقافة الوطني الأردني)١/ ٣/ ٦/ ٢٠٠٤	رابطة الكتاب الأردنين	٢٠٠٧
١٢٤.	المذكرات والرحلات للشيخ إبرهيم القطان	د. صلاح جرار،كايد هاشم،ريم القطان	٢٠٠٧
١٢٥.	الدراسات الأسلوبية العربية بين النظرية والتطبيق	د. عثمان الجبر	٢٠٠٧
١٢٦.	عين ثالثة (تداخل الفنون والأجناس في أعمال إبراهيم نصر الله الإبداعية)	حسين نشوان	٢٠٠٧
١٢٧.	المثاقفة وتحولات المصطلح (دراسات في المصطلح النقدي عند العرب)	د.زياد الزعبي	٢٠٠٧
١٢٨.	أسئلة السينما العربية	عماد مدانات	٢٠٠٧
١٢٩.	موجز تاريخ المسرح الأردني ١٩١٨-٢٠٠٦	غنام غنام	٢٠٠٨
١٣٠.	التعليم في الكرك في عهد الأمارة	فيصل القرالة	٢٠٠٨
١٣١.	المسؤولية التاريخية في سقوط اللد والرملة	د.سعد أبو دية	٢٠٠٨

١٣٢.	أوراق ندوة روكس بن زائد العزيزي	وزارة الثقافة	٢٠٠٨
١٣٣.	القول الصحيح في تخميس بردة المديح لعائشة الباعونية	د. حسن الربابعة	٢٠٠٨
١٣٤.	الأمثال الشعبية الأردنية	د. هاني العمد	٢٠٠٨
١٣٥.	في الجهود النسوية المسرحية	عبد اللطيف شما	٢٠٠٨
١٣٦.	مبتكراتي-الملك عبدالله الأول-(جمع الذكر بالقريض) خواطر النسيم-الجزء الرابع	د. خلف إبراهيم النوافلة	٢٠٠٨
١٣٧.	الخطاب الروائي في رواية متاهة الأعراب في ناطحات السراب	د. نجود عطا الله الحوامدة	٢٠٠٩
١٣٨	حوارات	فخري قعوار	٢٠٠٩
١٣٩	ملتقى عمان الثاني عشر	وزارة الثقافة	٢٠٠٩
١٤٠	رواد المسرح والرقص الحديث في القرن العشرين – النظرية والتطبيق	مجد القصص	٢٠٠٩
١٤١	الوثيقة الزراعية	وزارة الثقافة	٢٠٠٩
١٤٢	مع شكسبير	جريس القسوس	٢٠٠٩
١٤٣	النمو الانفعالي والاجتماعي للطفل	د. معاوية أبو غزال	٢٠٠٩
١٤٤	مهنا الدرّة – سيرة إبداعية	وزارة الثقافة	٢٠١٠
١٤٥	كتابات في القضايا العربية	وصفي التل	٢٠١٠
١٤٦	أوراق الندوة العلمية – العابدي	وزارة الثقافة	٢٠١٠
١٤٧	ذروة المشهد	أحمد طمليه	٢٠١٠
١٤٨	تاريخ القدس السياسي (ثلاثة أجزاء)	د. غازي ربابعة	٢٠١٠
١٤٩	أنطولوجيا الكرك – الروح والجسد	سهام ملكاوي – حذام	٢٠١١

		قدورة	
١٥١	المدرسة اللغوية في الأخلاق	سحبان محمود خليفات	٢٠١٠
١٥٢	القيان والغناء في العصر الجاهلي	ناصر الدين الاسد	٢٠١٠
١٥٣	ديوان قيس بن الحطيم	ناصر الدين الاسد	٢٠١٠
١٥٤	المماثلة والاحتمال- قراءات في تجارب مسرحية أردنية	عواد علي	٢٠١١
١٥٥	مذكرات خالد حجازي	د. هيثم حجازي	٢٠١١
١٥٦	المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩٢٣ / ثلاثة أجزاء	سليمان الموسى	٢٠١١
١٥٧	متفرقات أدبية ودراسات ثقافية	حسين خريس	٢٠١١
١٥٨	معلمة للتراث الأردني(خمسة ة أجزاء)	روكس بن زائد العزيزي	٢٠١١
١٥٩	عيسى الناعوري –ذكريات حياتي	صلاح جرار- كايد هاشم	٢٠١١
١٦٠	في أدب الحكاية الشعبية في فلسطين والأردن	عمر عبد الرحمن الساريسي	٢٠١١
١٦١	الأعمال الأدبية الكاملة لخالد الساكت	يحيى خالد الساكت	٢٠١١
١٦٢	المسيحيون في قضاء السلط	محمد عبد القادر خريسات	٢٠١١
١٦٣	عتبة التأويل وعتمة التشكيل	بسام موسى قطوش	٢٠١١
١٦٤	دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام	صالح الدرادكة	٢٠١٢
١٦٥	دراسات في فلسفة الأخلاق والتحليل اللغوي في الفكر الغربي المعاصر	د. سحبان خليفات	٢٠١٢
١٦٦	الحركة المسرحية في إربد ١٩٢٠-٢٠١٠)	حسن عبد الفتاح ناجي	٢٠١٢

١٦٧	طبقات الأنساب في نسب آل البيت الهاشمي	"محمد نعمان"نهاد عفيف هاشم	٢٠١٢
١٦٨	التنوع الثقافي في الأردن	حكمت عبد الرحيم النوايسة	٢٠١٢
١٦٩	رحلتي مع الأردن	فايز أحمد الطراونة	٢٠١٢
١٧٠	القدس التاريخ والأدب الصهيوني	يوسف صالح يوسف	٢٠١٢
١٧١	كشاف منشورات الوزارة	إعداد: زياد أبو لبن	٢٠١٣
١٧٢	الكلمة والرصاصة/ دراسة في حياة وآثار الأديب الراحل تيسير السبول	د.سليمان الأزرعي	٢٠١٣
١٧٣	المؤتمر الوطني للثقافة (الثقافة والمتغيرات).	إعداد: إبراهيم السواعير	٢٠١٣
١٧٤	الزرقاء، النشأة والتطور (١٩٠٣-١٩٣٥م)	د. عبد الله العساف	٢٠١٣
١٧٥	جدل المبنى والمعنى في العمل الروائي	د. حكمت النوايسة	٢٠١٣
١٧٦	تتبع أثر معان الشامية	محمد المعاني	٢٠١٣
١٧٧	الحياة البرلمانية في الأردن من عام ١٩٢١ - ٢٠١٣	د.جورج فريد طريف الداوود	٢٠١٤
١٧٨	جماليات المفارقة في القصص القرآني	د. رنا أحمد عبد الحليم	٢٠١٥


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



د. رنا أحمد عبدالحليم

جَمَالِيّاتُ المُفَارَقَةِ فِي القَصَصِ القُرْآنِي





